

رابطة الأدب الإسلامي العالمي

قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال

تأليف
ابو الحسن علي الحسني الندوي

مؤسسة الرسالة

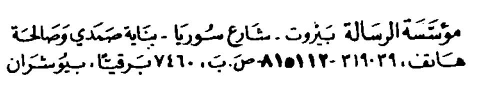

بسم الله الرحمن الرحيم

قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م




مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف، ٣١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢ - ص.ب. ٧٤٦٠ برقيا، بيوشران

بين يَدي الكِتاب

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ والصلاةُ والسلامُ على سيدِ المرسلينَ وخاتمِ النبيينَ سيدِنا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين، ومَنْ تبعهمْ بإحسانٍ ودعا بدعوتهمْ إلى يومِ الدينِ، أما بعد:

فقد اتفقَ علماءُ التربيةِ وعلماءُ النفسِ على أنَّ الحكاياتِ الخفيفةَ الشائقةَ، الموجَّهةَ الهادِفةَ، مِنْ أقوى وسائلِ التربيةِ والصياغةِ الخلقيةِ والمبدئيَّةِ، والدينيةِ والإيمانيةِ، إذا كانتْ متَّصلةً بأقطابِ الإيمانِ واليقينِ، والدياناتِ والرسالاتِ.

وإذا كانت هذه القصصُ والحكاياتُ على مستوى عقولِ الأحداثِ والأطفالِ، وفي اللغةِ التي

يفهمـونَهـا بسهـولةٍ، ويسيغونَها ويتذوَّقونها، كانت مدرسةً للأطفالِ يتعلَّمونَ فيها المبادىءَ والأخلاقَ الفـاضِلةَ، والـدوافـعَ النبيلةَ، والمشـاعرَ الكريمةَ الرقيقةَ، مِنْ غيرِ أنْ تثقلَ عليهمْ، ومِنْ غيرِ سآمةٍ ومَلَلٍ.

ولا أبْلغَ ولا أَصْدَقَ مِنْ قولِ الله تعالى في كتابهِ العزيزِ: ﴿لَقَدْ كانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لأولي الألْبابِ﴾(1).

ويقولُ مخاطِباً لنبيِّهِ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فاقْصُصِ القَصَصَ لعلَّهُمْ يتفكَّرون﴾(2).

ويقولُ في مُفْتَتَحِ سورة يوسُفَ: ﴿نحنُ نَقُصُّ علَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بما أوْحَيْنا إليكَ هذا القرآنَ

---

(1) سورة يوسف: الآية ٢١١.

(2) سورة الأعراف: الآية ١٧٦.

وإنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين﴾[1].

لذلكَ عُنِيَتْ أكثرُ اللغاتِ والآدابِ، والدياناتِ، والبيئاتِ، والمعنيونَ بتربيةِ الأطفالِ، وإنشاءِ الجيلِ الجديدِ على الأخلاقِ الفاضلةِ، وخلالِ المروءةِ، والفتُوَّةِ، والإيثارِ والتضْحيةِ، والرُّجولةِ والبطولةِ، بجمْعِ حكاياتٍ شائقةٍ مُثيرةٍ تُلائمُ سِنَّ الأطفالِ، وعقليتهمْ ومدى قدرتِهمْ على الوَعْيِ والتذوُّقِ[2]، حتى تكوَّنَتْ مِنْ ذلكَ مكتبةٌ زاخرةٌ في كلِّ لغةٍ حيَّةٍ راقيةٍ، وفي كلِّ بيئةٍ عاقلةٍ واعيةٍ، تعنى بتربيةِ الأطفالِ، وإنشاءِ الناشئة، والجيلِ الجديدِ على حُبِّ أهدافِها ومُثُلِها، وقِيَمِها

---

(١) سورة يوسف: الآية ٣.

(٢) يستوي في ذلك الصغارُ في السنِّ والبدائيون في دراسةِ لغةٍ منَ اللغاتِ.

التي تحتاجُ إليها وتغارُ عليها، قلَّما تُسْتَثْنى مِنْ ذلكَ لغــةٌ مِنْ لغــاتِ العــالمِ المتمـدِّنِ، وشعبٌ مِنَ الشعوبِ العاقلةِ المثقَّفةِ.

والناشئةُ الإسلاميةُ، والأطفالُ المسلمونَ أحوجُ مِنْ كلِّ ناشئةٍ وجيلٍ في سنِّ الحَدَاثةِ، إلى قصصٍ وحكــاياتٍ تَغْــرِسُ فيهم حبَّ الخيرِ والفضيلةِ، والبـطولـةِ والتضْحيةِ، والجهادِ والشهادةِ في سبيلِ الله، وإيثـارِ الآخـرةِ على الـدنيا، والعـزوفِ عَنْ سفــاسفِ الأمــورِ وفضــولِ الحياةِ، والحبِّ لله وللرسولِ، ولأصحابِهِ وأتباعِهِ، والذينَ بذلوا نفسَهُمْ ونفيسَهم في سبيلِ الله، وحَمُوا الدينَ، ودافعوا عن المسلمينَ، لأنَّ سعادةَ الدنيا، وفلاحَ البشرِ، يتوقَّفُ على نُشـوئهمُ النُّشـوءَ الصـالحَ، وتَضَلُّعِهِمْ بروحِ الدعْوةِ إلى الله، والكفاحِ في سبيلِ الله، والتَّحلِّي

بالحياةِ المثاليةِ النموذجيةِ.

والتاريخُ الإسلاميُّ مِنْ أغْنى الثرواتِ التاريخيةِ والمكتباتِ العالميةِ، في روائعَ إيمانيةٍ وخُلُقيةٍ، ومُثُلٍ إنسانيةٍ رفيعةٍ، باعثةٍ على الهمَمِ العاليةِ، والاتجاهاتِ والمطامحِ الخيِّرَةِ النبيلةِ، وكتبُ التاريخِ الموثوقُ بها، مليئةٌ طافحَةٌ بمثْلِ هذه الحكاياتِ والقصصِ، والمُثُلِ والنماذجِ، ولكنّ الأقْلامَ المسلمةَ، والمؤسساتِ التربويةَ، ودورِ النشرِ في العالمِ الإسلاميِّ ـ نقولُ هذا مع أسَفٍ واعتذارٍ ـ لم تُعْطِ هذا الجانبَ المهمَّ، حقَّهُ مِنَ العنايةِ والجمعِ والتأليفِ، فلا يزالُ أطفالُ المسلمينَ ومَنْ كانَ في سنٍّ حديثةٍ، يعيشونَ في قلةٍ ونُدْرةٍ، إذا لم نَقُلْ في فَقْرٍ وعِوَزٍ، مِنْ هذا الصنفِ مِنْ كتبٍ صغيرةٍ تجمعُ هذه الحكاياتِ والملتقطاتِ مِنْ كتبِ

التـاريخِ الضخمـةِ، وتُكَـوِّنُ مكتبـةً للأطفـالِ المسلمينَ تَسْهُـلُ الاستفـادةُ منهـا، وتَقْوى الرغبةُ فيها، ويدومُ أثرُها في نفوسِ الأطفالِ والنَّشْءِ الحديثِ.

وقد شرحَ الله صدرَ الكاتبِ لالتقاطِ حكاياتٍ خفيفةٍ شائقةٍ، مُثيرةٍ مُفيدةٍ، مِنْ كتبِ السيرةِ وتاريخِ الإسلامِ ، والسِّيَرِ والتراجمِ ، بعدَ ما وفَّقَهُ الله لتأليفِ سلسلةٍ مِنْ «قصصِ النبيينَ للأطفالِ ١ ـ ٥» كانتْ موضعَ عنايةٍ وتقديرٍ في الأوساطِ المدرسيةِ في شبهِ القـارةِ الهنديةِ والبلادِ العربيةِ، وثناءٍ وإعجابٍ مِنْ رجـالِ التـربيةِ وقـادةِ الفكرِ الإسلاميِّ، وهذا في الأربعيناتِ الأولى مِنَ التقويمِ الحديثِ، وصدرتْ عدَّةُ رسائلَ صغيرةٍ، في كلِّ رسالةٍ حكايةٌ، ثم شُغِلَ عنهـا بأشغـالِـهِ التعليميةِ والـدعويةِ، والتأليفيةِ في

موضـــوعـاتٍ كبيرةٍ علميةٍ، ولكنَّـهُ شعـرَ بمسيسِ الحاجةِ أخيراً إلى مواصلةِ هذا الموضوعِ ، والزيادةِ في مادتِهِ، فاختارَ موادَّ جديدةً مِنْ كتبِ التاريخِ ، وصــاغَهـا في لغـةٍ سَهلةٍ، وأسلوبٍ مُبَسَّطٍ لائقٍ بالأطفالِ ، والذين حصَلَ لهمْ إلمامٌ باللغةِ العربيةِ، وبـدأوا يفهمـونَ اللغـةَ السهلةَ الميسـرةَ، فتكونَتْ بذلـكَ رسـالةٌ أو كتابٌ صغيرٌ يحتوي على ثمانيَ عشْـرةَ (١٨) حِكـايةً، يرجو المؤلفُ أنْ ينالَ بهذه الخـطوةِ البـدائيةِ المباركةِ، تقديرَ رجالِ التربيةِ، وأصحـابَ الأقـلامِ في اللغـةِ العـربيةِ، وأنْ تلِيَها خطواتٌ، وتُؤلَّفَ مجمـوعـاتٌ، تحتوي على مثلِ هذه الحكاياتِ، وربَّما تكونُ أبلغَ وأقْوى، وأجملَ لغةً وأسلوباً مِنْ هذا الكتابِ الصغيرِ، فيكونُ بذلكَ نالَ أجْـرَ النيةِ والعزْمِ ، والترغيبِ في مواصلةِ هذه

الـرحلةِ، وإثـراءِ المكتبةِ الإسلاميةِ بجناحٍ خاصٍّ بالأطفـالِ، وثروةٍ نافعةٍ ذاتِ قيمةٍ دينيةٍ، تربويةٍ، خُلُقيةٍ، وعلى الله قصدُ السبيلِ.

أبو الحسن علي الحسني الندوي
الأمين العام لندوة العلماء ـ لكهنؤ
ورئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية

١٨/٦/١٤١١هـ ـ ٦/١/١٩٩١م

* * *

اللهُ خيرٌ حافظاً وهو أرحمُ الرّاحمين

وُلِدَ رسولُ اللهِ ﷺ في مكةَ، وهيَ وطنُهُ ووطنُ آبائهِ، وكان أهلُها يعبُدونَ الأصنامَ، ويعيشونَ حياةً جاهليةً، لا يرضاها اللهُ تعالى، فيها الوثنيةُ، وفيها الجهلُ، وفيها الظلمُ، فبعثَ اللهُ رسولَهُ، وهو في سنِّ الأربعينَ، وأنْزَلَ عليْهِ الوحْيَ، وأَمَرَهُ بالدعوة إلى التوْحيدِ، والدِّينِ الخالصِ، وفضائلِ الأعمالِ، فعاداهُ أهلُ مكَّةَ، حتى ضاقَتْ الأرضُ على هذه الدعوةِ، والعقيدةِ، وتنكَّرَ أهْلُها لهما.

وأُمِرَ رسولُ اللهِ ﷺ بالهجْرةِ إلى المدينةِ، فخرجَ هوَ وصاحبُهُ أبو بكرٍ - رضيَ اللهُ عنْهُ - مِنْ مكَّةَ مُسْتخفيَيْنِ، واقْتفى المشركونَ أثَرَ رسولِ اللهِ ﷺ،

وَوَصَلا في طريقهما إلى غارِ ثَوْرٍ ـ وهوَ على جبلٍ بينَ مكَّةَ والمدينةِ ـ ودَخَلا الغارَ.

وبعثَ اللهُ العنكبــوتَ فنسجَتْ ما بينَ الغـارِ والشَّجرةِ التي كانَتْ على وَجْهِ الغارِ، وسترَتْ رسولَ الله ﷺ وأبا بكرٍ، وأَمَر اللهُ حمامتيْنِ وحْشِيتيْن فأقْبلَتا تدفَّانِ[١]، حتى وقَعَتا بينَ العَنْكَبوتِ وبيْنَ الشَّجرةِ، ﴿وللهِ جُنودُ السماواتِ والأَرْضِ﴾.

وَوَصَلَ الباحِثونَ إلى فَمِ الغارِ، ولَمْ يَبْقَ بينهُمْ وبيْنَ مَعْرِفَتِهِمْ إلا أَنْ يَنْظُرَ أَحدُهُمْ إلى تَحْتِ قدمَيْهِ، ولكنَّ اللهَ حالَ بينَهُمْ وبيْنَ ذلــكَ، فاخْتَلَطَ عليهِمُ الأَمْرُ، ورَأَوْا على بابِ الغارِ نسْجَ العنكبوتِ، وكيفَ يدخُلُ أَحَدٌ الغارَ، ولا يُقْطَعُ نَسْجُ العَنْكبوتِ، ويبْقى على حالِهِ؟.

---

(١) دَفَّ الطائرُ حرَّكَ جناحَيْهِ كالحَمامِ.

وبينما هُما في الغارِ إذْ رأى أبو بكْرٍ آثارَ المشْرِكيْنَ، فقالَ يا رسولَ اللهِ: لَوْ أَنَّ أحدَهُمْ رفعَ قدمَهُ رَآنا.

قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «ما ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللهُ ثالثُهُما»[1] وفي ذلك يقولُ اللهُ تَعالى:

﴿ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما في الغارِ إِذْ يقولُ لصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا﴾[2] واخْتَلَطَ على الباحِثِينَ والمتفحِّصينَ الأَمْرُ، وانصَرفُوا خائبينَ.

وأقامَ رَسولُ اللهِ ﷺ بالمدينةِ، وبَدأَتْ دَعْوَةُ الإسْلامِ تَنْتَشِرُ والنَّاسُ يدخُلونَ في دينِ اللهِ، وبقيَتْ عداوةُ قُرَيْشٍ والمشرِكينَ على حالِها، وبَدَؤوا يحاربونَ الإسْلامَ والمسْلمينَ، والمسْلمونَ

(١) الجامعُ الصحيحُ للبخاريِّ «كتابُ التفسيرِ».

(٢) سورة التوبة: الآية ٤٠.

يقاوِمونَهُمْ ويُقابِلُونَ السِّلاحَ بالسِّلاحِ ، والجَيْشَ بالجيْشِ .

وخَرجَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم في غَزْوَةٍ، هَلْ تعرفونَ ما هِيَ الغَزْوَةُ؟ .

لعلَّكُمْ تعلمونَ أَنَّ المسْلمينَ كانُوا يَخْرُجون للجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، وكانُوا يُقاتِلونَ المشْرِكينَ والكُفَّارَ لوجْهِ اللهِ تَعالى، ولعلَّكُمْ تَعْلمونَ فضيلَةَ الجهادِ في سَبيل اللهِ؟ وكانَ النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم يَخْرُجُ أَحْياناً مَعَ المسْلمينَ، وأَحْياناً يمكُثُ في المدينةِ لِشُغُلٍ أَوْ مَصْلَحَةٍ ويبْعَثُ جُنْداً مِنَ المسْلمينَ.

فالغَزْوَةُ ما خرجَ فيها رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم في جُنْدٍ مِنَ المسْلمينَ للجِهادِ في سبيلِ اللهِ .

نَعَمْ، فخَـرَجَ رَسـولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآلـه وسلم في غَزْوَةٍ ورجَعَ عَنْها في الظَّهيرَةِ، وكانَتْ أَيَّامَ الصَّيْفِ، فأَرَادَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم أَنْ يَسْتريحَ.

وَلَيْسَ في البرِّيَّةِ مَكانٌ يستريحُ فيه الإِنسانُ إلَّا الشَّجَرُ.

ولَيْسَ في البـرِّيَّةِ في بِلادِ العرَبِ شَجَرٌ كَبيرٌ، ولَيْسَ فيها إلَّا السَّمُرُ(١).

فنزَلَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم تَحْتَ سَمُـرَةٍ وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، وتَفَرَّقَ النَّاسُ ونَامُوا، وَنامَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم تَحْتَ السَّمُرَةِ.

وَجـاءَ رجُـلٌ مِنَ المشْركينَ وَسَيْفُ رَسولِ الله

---

(١) نوعٌ مِنْ شَجَرِ البَرِّيَّةِ فيهِ شَوكٌ.

صلَّى الله عليه وآله وسلم مُعَلَّقٌ بالسَّمُرَةِ وهُوَ في غِمْدِهِ.

فأَخَذَ المشْرِكُ السَّيْفَ وَسَلَّهُ مِنْ غِمْدِهِ، واستَيْقَظَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم.

فَقالَ المشْرِكُ... والسَّيْفُ مَسْلولٌ في يَدِهِ... لِرَسُولِ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم: تَخافُني؟.

قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم: لَا!

قالَ المشْرِكُ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟.

قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم: اللهُ!.

فسقَطَ السَّيفُ مِنْ يَدِ المشْرِكِ، فأَخَذَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم السَّيْفَ.

فقالَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم

للمشْرِكِ: مَنْ يَمْنعُكَ مِنِّي؟ فقالَ المشْرِكُ: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ!

فقالَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم: أَتَشْهَدُ أنْ لا إِلـهَ إلَّا اللهُ وأنِّي رَسولُ اللهِ.

قالَ المشْرِكُ: لَا! ولكِنِّي أُعاهِدُكَ على أنْ لا أُقاتِلَكَ وَلَا أكونَ مَعَ قومٍ يقاتلونَكَ.

فخلَّى رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم سبيلَهُ.

فأتى المشركُ أصحابَهُ فقالَ: جئتُكُم مِنْ عندِ خيرِ الناسِ[1].

---

(١) ملتقط من الصحيحين وصحيح أبي بكر الإسماعيلي.

المُضِيفُ الجَائعُ

المهاجرونَ والأنصارُ:

هاجرَ النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم وأصحابُهُ مِنْ مكةَ إلى يَثْرِبَ وَسَكنوها.

هاجرُوا إلى يثربَ وتركُوا بيوتَهُم وأموالَهُم وإخوانَهُم وراءَهُم في مكةَ فسَّماهُمُ اللهُ ورسولُهُ «المهاجرينَ».

واسْتقبلَهُمُ المسلمونَ في يثربَ، وفرِحُوا بهمْ وقالوا: «أهلاً وسهلاً ومرحباً».

وأنزلوهُمْ في ديارِهِمْ وحكَّموهُمْ في أمْوالِهِمْ وأمْلاكِهِمْ، فسمَّاهُمُ اللهُ ورسولُهُ «الأَنصارَ».

قالَ المهاجرونَ: باركَ اللهُ لكُمْ في أمْوالِكُمْ وأملاكِكُمْ وأزواجِكُمْ فلا حاجةَ لنا فيها.

ولكن دُلُّونا إلى السوقِ نَتَّجِرُ ونكْتَسِبُ.

وهكذا فعلوا، ذَهبوا إلى السوقِ يبيعونَ ويشْترونَ، وأغناهُمُ اللهُ سريعاً.

أصبحَتْ يثربُ مدينةَ الرسولِ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فما مِنْ أَحَدٍ إلَّا ويُسمِّيها مدينةَ الرسولِ أو المدينةَ.

وأصبحَتِ المدينةُ مدينةَ الإسلامِ، مدينةَ الإسلامِ الوحيدَة في العالمِ.

وكانت هذه المدينةُ مَهْجرَ المسلمينَ في العالمِ، إذا أسْلمَ أحدٌ وآذاهُ قومُهُ هاجَرَ إلى المدينةِ وأَمِنَ مَكْرَهُمْ.

وكانتِ المدينةُ مدرسةَ الإسلامِ ، مدرسةَ الإسلامِ الوحيدةَ في العالمِ .

فإذا أسْلَمَ أَحَدٌ وجَبَ عليهِ أَنْ يتعلَّمَ الدينَ، ويتعلَّمَ الحلالَ والحرامَ ويتعلَّمَ أحْكامَ الإسلامِ .

ووجَبَ عليهِ أَنْ يتعلَّمَ القرآنَ والفرائضَ، ويتعلَّمَ كيفَ يُصَلِّي ويصومُ.

وكيفَ يمكنُ للمسلمِ أن يصلِّيَ ويصومَ، ويعبدَ اللهَ بغيرِ العلمِ ، وكيفَ يمكنُهُ أَن يعيشَ بغيرِ العلمِ ؟!

وأين يذهبُ إذا أرادَ أن يتعلَّمَ الدينَ؟ أإلى مكَّةَ؟ لا! إلى الطائفِ؟ لا، ليس هنا أحدٌ يعلِّمُ الدينَ.

كانتِ المدينةُ مدرسةَ الإسلامِ ، مدرسةَ

الإسلامِ الوحيدةَ في العالمِ، فلا بُدَّ أن يتوجَّهَ إليها.

فكانَ المسلمونَ يتوجَّهونَ إلى المدينةِ مِنْ كلِّ ناحيةٍ مِنْ نَواحي العربِ، منهم مَنْ يَفِرُّ بدينِهِ مِنَ الفتَنِ، ومنهمْ من يريدُ أن يتعلَّمَ الدينَ.

وكان هؤلآءِ ضيوفَ الإسلامِ.

وكانَ هؤلآءِ يأتونَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وكان الرسولُ صلَّى الله عليه وآله وسلم يفرحُ بهم، ويقولُ لهمْ: أهلاً وسهلاً ومرحباً.

وكانَ هؤلآءِ ضيوفَ اللهِ ورسولِهِ، وضيوفَ الإسلامِ.

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم يريدُ أن يُكرِمَهُمْ ويُطعِمَهُمْ لأنهمْ ضيوفُ اللهِ ورسولِهِ، وضيوفُ الإسلامِ.

ولكنْ كانَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم زاهـداً في الـدنْيا، يأكُلُ مرَّةً ويجوعُ أُخْرى، يأكُلُ فيشكر، ويجوعُ فيصبر.

وكانَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم، قَدْ لا توقدُ في بيتِهِ نارٌ، ولا يُطْبخُ طعامٌ، وما كانَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وآلـه وسـلم يحبُّ أنْ يجـوعَ ضيوفُهُ، وهم ضيوفُ اللهِ، ورسولِهِ، وضيوفُ الإسلامِ.

وقد قالَ صلَّى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليُكْرِمْ ضَيْفَهُ».

وكـانَ المسلمـونَ في المـدينـةِ أسرةً واحدةً، وكانتِ المدينةُ بيتاً واحداً.

فإذا جاءَ ضيوفٌ قسَمَهُم النبيُّ صلَّى الله عليه

وآله وسلم على المسلمينَ فذهبوا بهم إلى بيوتِهِمْ وأَضافوهُمْ.

وذهبَ هؤلآءِ الضيوفُ إلى بيوتِ المسلمينَ، وأَكَلُوا فيها وباتوا، فكأَنَّما أكلوا في بيتٍ واحدٍ، وكانوا ضيوفَ رجلٍ واحدٍ.

وكانوا ضيوفَ اللهِ وضيوفَ رسولِهِ أينما كانوا.

وكانَ في الأنصارِ رَجُلٌ يحبُّ اللهَ ورسولَهُ، ويحبُّهُ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وهو أبو طلحةَ الأنصاريُّ رضي الله عنه.

وكان لأبي طَلْحةَ بستانٌ فيهِ ظلٌّ باردٌ وماءٌ عَذْبٌ.

وكانَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم يذهبُ إليه في بعضِ الأيامِ ويجلسُ في بُسْتانِهِ، ويشْربُ الماءَ الباردَ.

وذهبَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم ذاتَ يوم ٍ إلى بستانِ أبي طلحةَ، ومعَهُ أبو بكرٍ رضي الله عنه فجلسَ في بستانِهِ وشربَ الماءَ، وجاءَ أبو طلحةَ ففرِحَ بهما جداً، وذهبَ يذبَحُ لهما شاةً.

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم: لا تذبَحْ ذاتَ وَلَدٍ وذاتَ لَبَنٍ، وذبحَ لهما أبو طلحةَ شاةً، وطبخَها لهما، فأكلا وشَرِبا وحَمِدا اللهَ، ودعا رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم لأبي طلحةَ.

وجاءَ ضيوفٌ مرَّةً إلى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم فقسمَهُمْ على المسلمينَ.

وأَخذَ كلُّ واحدٍ نصيبَهُ مِنَ الضُّيوفِ، وأخذَ أبو طلحةَ نصيبَهُ مِنَ الضيوفِ.

وفرِحَ أبو طلحةَ بالضيوفِ لأَنَّهُمْ ضيوفُ اللهِ ورسولِهِ وضيوفُ الإسلامِ.

وفـرِحَ أبـو طلحةَ لأنَّه يرجو في ذلكَ رِضا اللهِ ورسولِهِ وثوابَ الآخرةِ.

وسارَ أبو طلحةَ بضيوفِه، وهو لا يعلَمُ هلْ يجدُ لضيوفِهِ طعاماً في بيتِهِ.

ولا يَدْري أبو طلحةَ ماذا طبخَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ؟.
ولا يَدْري أبو طلحةَ هلْ في البيتِ فَضْلٌ مِنَ الطعامِ يأكلُهُ الضيوفُ؟.

ولا يَدْري أبو طلحةَ هلْ أكلَ الأطفالُ طعامَهُمْ وناموا، أمْ ينتظرونَ الطَّعامَ؟.

لم يفكِّرْ أبو طلحةَ في ذلكَ، ولمْ يمنعْهُ شيءٌ.

وقطعَ أبـو طلحـةَ الـطريقَ في فرحٍ وسُـرورٍ والضيوفُ وراءَهُ.

وقرعَ أبو طلحةَ البابَ وسلَّمَ على أهلِ البيتِ؟

السلامُ عليكُمْ، أأَدْخُلُ؟

وإذا صوتٌ منَ الدارِ: وعليكَ السلامُ، أُدْخلْ.

ودخلَ أبو طلحةَ وقالَ في صوتِ المبشِّرِ، معيَ ضُيوفُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم.

قالتْ أُمُّ سُلَيْمٍ في صوتِ المسْتَبْشِرِ: مرحباً بضيوفِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم.

قال أبو طلحةَ: وما في البيتِ منَ الطعامِ؟

قالتْ أُمُّ سُلَيْمٍ في غيرِ جزَعٍ ولا خوْفٍ: طعامُ الأطفالِ فَقَطْ.

وماذا يفعلُ أبو طلحةَ والطعامُ لا يكفي أهلَ البيتِ فكيفَ بالضيوفِ؟!

فكَّرَ أبو طلحةَ واهتدى إلى حِيلةٍ لطيفةٍ.

والكريمُ لَهُ حِيَلٌ ولطائفُ.

عزَم أبو طلحةَ على أنْ يجوعَ هذه الليلةَ ويطعمَ ضيوفَهُ.

وعزمَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ على أنْ تجوعَ الليلةَ وتطعمَ ضيوفَها.

وماذا عليهما لَوْ جاعا ليلةً منَ الليالي وأَطْعما ضيوفَهُما، إنهما لا يموتانِ إذا جاعا ليلةً!.

وعزما على أن يؤْثِرا الضيوفَ على أنفسهِما.

وعزَما على أن يُسكِّتا الأطفالَ فينامونَ، ويأكلُ الضيوفُ.

ولكنْ كيفَ يأكلُ الضيوفُ والمضيفُ لا يأكلُ؟!

فكَّرَ أبو طلحةَ في ذلك ووجدَ إلى ذلكَ سبيلاً!

قال لأُمِّ سُلَيْمٍ: إذا جَلْسنا نأكلُ، اِذْهبي إلى السِّراجِ كأنَّكِ تُريدينَ أنْ تُصْلحيهِ وأَطْفئيهِ.

وهكذا كانَ، جلسَ الضيوفُ لِيَأْكلوا وجلَسَ أبو طلحةَ ليأْكُلَ.

وذهبتْ أُمُّ سُلَيْمٍ إلى السِّراجِ، كأَنَّها تريدُ أنْ تصْلِحَهُ.

وأَطفأَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ السِّراجَ.

انْطَفأَ السراجُ، وبدأَ الضيوفُ يأكلونَ في الظلامِ.

وكانَ أبو طلحةَ يمدُّ يدَهُ إلى الصُّحْفَةِ ويرفَعُها ولا يتناوَلُ شيئاً.

وكانَ أبو طلحة يريهِمْ أنَّهُ يأْكلُ، وهوَ لا يأكُلُ شيئاً.

ولا يشكُّ الضيوفُ في أكْلِهِ، ولماذا يشكُّونَ؟ مَنْ يتركُ العَشَاءَ؟ ومَنْ يجوعُ الليلةَ؟ أكلَ الضيوفُ مُطْمئنِّينَ، وشَبِعوا وظنوا أنَّ أبا طلحةَ شبِعَ أيضاً.

ولكنَّ أبا طلحةَ لَمْ يرفعْ لُقْمَةً إلى فيهِ، وكانَ الظلامُ عَوْناً لأبي طلحةَ.

وقامَ الضيوفُ وغسلوا أيديهمْ وحَمِدُوا اللهَ ودعوا لمضيفِهِمْ بالبَرَكَةِ.

وقامَ أبو طلحةَ وغسلَ يدَهُ.

وباتَ الضيوفُ شِباعاً، وباتَ أبو طلحةَ جائعاً.

ولكنَّ أبا طلحةَ كانَ أكبرَ سُروراً وأكثَرَ شُكْراً للهِ في هذه الليلةِ منه في الليالي السابقةِ.

حَضَـرَ أبــو طلحةَ مجلِسَ الرسولِ صلَّى الله عليه وآله وسلم على عادتِهِ.

وكانَ أبو طلحةَ مطْمئناً مسْروراً كأنَّه باتَ شَبْعان:

ويظنُّ أبو طلحةَ أنَّ قصةَ الليلِ كانتْ سِرّاً منَ الأسرارِ لا يعلمُهُ إلا هُوَ وزوجُهُ أُم سُلَيْمٍ.

ولكنَّ اللهَ يعلمُ السِّرَّ وأخْفَى، وقد أنزلَ اللهُ في ذلك آيةً، وقال: ﴿**ويؤثِرُونَ على أنفسِهِمْ ولَوْ كانَ بهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾.

وسأَلَ الرسولُ صلَّى الله عليه وآله وسلم عنِ القصَّةِ وأخبرَهُ أبو طلحةَ بخَبَرِهِ.

وفَرِحَ النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم بهذا الإيثارِ وبهذا الكَرَمِ ورضي عنْ أبي طلحةَ.

وبقيتِ القصَّةُ خالدةً في التاريخ والتفسيرِ.

«رضي الله عَنْ أبي طلحَةَ وأَرْضاهُ».

شهامة اليتيم

لمـا دعا رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم الناسَ إلى الله في مكةَ، ونادى في الناسِ «لا إله إلاّ الله محمـدٌ رسولُ الله» غَضِبَتْ قُرَيْشٌ وكانَتْ تعبدُ الأصنـام، وكـانتْ في الكعبةِ ـ التي بناها إبراهيمُ وإسمـاعيلُ «عليهمـا الصـلاةُ والسلامُ» لعبادةِ الله وحدَهُ ـ ثلاثُ مائةٍ وستونَ صنماً، فاشتعلَتْ قريشٌ غضَبـاً وآذَوْا رسولَ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم، وعذَّبوا المسلمينَ، فصبرَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم، وصبرَ المسلمونَ وثَبَتوا لهمْ كالجبالِ.

ولكنَّ قريشاً كانوا يمنعونَ الناسَ عنِ الإسلامِ ويَحُـولـونَ بينَ المسلمينَ وعبـادةِ اللهِ، فأذِنَ اللهُ

لرسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم بالهجْرةِ، فهاجرَ إلى المدينةِ، وهاجرَ المسلمونَ، وكانَتِ المدينةُ أرضاً طيبةً للإسلامِ، في أهْلِها لِينٌ ورِقّةٌ، قد أسلَمَ منهمْ كثيرٌ قبلَ الهجرةِ.

ولما انتقلَ النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم مِنْ مكةَ إلى المدينةِ وسكنَ هنالكَ أحبَّ أن يبنيَ مسْجداً، لأنَّ المسجدَ لازمٌ للمسلمينَ، وهو قُطْبٌ تدورُ حولَهُ رَحَى الحياةِ الإسلاميةِ.

وكانَ النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم نازِلاً في بيتِ أبي أيوبٍ الأنصاريِّ (رضي الله عنه) وكانَ ضيفاً عليْهِ، وكانَ قريباً منْ بيتِهِ مِرْبَدٌ[1]، فأرادَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم أن يبنيَ المسجدَ في

(١) مَحْبِسُ الإبلِ ومَوْضِعُ جَمْعِ التمرِ.

ذلـك المكانِ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: لِمَنْ هذا المِرْبَدُ؟

قالَ رجلٌ مِنَ الأَنْصارِ اسمُهُ معاذُ بنُ عفراءَ: هوَ يا رسولَ اللهِ! ليتيمَيْنِ، سمُ أَحَدِهِما سَهْلٌ، واسمُ الثاني سُهَيْلٌ.

طلبَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلم سهْلاً وسُهَيْلاً، وهما وَلَدانِ يتيمانِ، فلما حَضرا، كلَّمَهُما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآلـه وسلم في أمرِ المِرْبَدِ وثمنِهِ.

قال سهْلٌ وسُهَيْلٌ: هوَ - يا رسولَ اللهِ - للهِ، لا نشْتَـريَ بهِ ثمنـاً، فابْنِ المسجـدَ، وقـدْ طابَتْ بهِ أنفُسُنا، ولكنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلم أَبَى، واشْتَرى منهما المكانَ، ودفَعَ الثمنَ.

وبَنى المسلمونَ المسجدَ، ورسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم يعملُ بيدِهِ وينقلُ اللَّبِنَ، فقالَ قائلٌ مِنَ المسلمينَ:

لئنْ قعدْنا والنبيُّ يعملُ
لذاكَ منَّا العملُ المضَلَّلُ

وكانَ المسلمونَ يبنونَهُ ويقولونَ:

اللهم لا عَيْشَ إلا عيْشُ الآخره
فارْحَمِ الأنصارَ والمهاجِرَه

وقد زادَ في هذا المسجدِ أميرُ المؤمنينَ عثمانُ بن عفانَ (رضي الله عنه) والملوكُ بعدَهُ حتى كانَ مسجداً جليلاً جميلاً، يسَعُ آلافاً مِنَ المصلينَ، قدَّرَ اللهُ زيارتَكُمْ لهُ والصلاةَ فيه.

مسابقة بين شقيقين

قالَ سيدُنـا عبـدُ الرحمنِ بنِ عَوْفٍ رضيَ اللهُ عنْـهُ: كنْتُ واقفـاً يومَ بدْرٍ وغُـلامـانِ مِنَ الأنصـارِ معاذُ بنُ عفراءَ ومعوِّذُ بنُ عفراءَ عنْ يميني وشِمالي.

والتفَتُّ إلى أحـدِهمـا، وقـالَ لي سرّاً مِنْ صاحبِهِ: «أيْ عمِّ! هَلْ تعرفُ أبا جهلٍ»؟

فقلتُ: نَعمْ! وماذا تريدُ منْهُ يا ابنَ أخي؟

قالَ: أُخْبِرْتُ أنَّهُ يسبُّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم، أَرِنيهِ يا عمِّ! فإنِّي أَعْطَيْتُ اللهَ عهداً إنْ رأيتُهُ أن أَقْتُلَه أو أموتَ دونَهُ.

وقالَ ليَ الآخرُ سرّاً منْ صاحبِهِ: أرِنيه يا عمِّ!

فإني عاهدْتُ اللهَ إن عاينْتُهُ أنْ أضربَهُ بسيْفي حتى أَقتلَهُ.

فبيْنـا أنا كذلكَ إذْ برزَ أبو جهلٍ، فقلتُ: ألا ترَيانِ؟ هذا أبو جهلٍ، هذا صاحبُكُمْ، فَشدَّا عليه مثلَ الصَّقْرَيْنِ حتى ضَرَباهُ.

ثم انصرَفا إلى النبي صلَّى الله عليه وآله وسلم فأخبراهُ.

فقالَ: «أيُّكُما قتلَهُ».

قالَ كلٌّ منهما: أنا قتلْتُهُ.

قالَ: «هَلْ مسحتُمِا سيفَيْكُما»؟

قالا: لا!

فنظرَ النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم في السيفَيْنِ..

فقالَ: كلاكُما قتلَهُ.

الحنين إلى الشّهادة

لمـا أرادَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم الخـروجَ إلى بدْرٍ ليقـاتـلَ المشركينَ، خرجَ غلامٌ اسمُهُ عُمَيْرُ بنُ أبي وقَّاصٍ ، عمرُهُ ستُّ عشْرَةَ سنَةً.

وكانَ عُميرٌ يخافُ أن لا يقبَلَهُ النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، لأَنَّهُ صغيرٌ، فكانَ يجتهدُ أن لا يراهُ أحدٌ، وكانَ يتوارَى.

ولكن رآهُ أخوهُ الأكـبـرُ سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ ، فقالَ لَهُ: مالَكَ يا أخي؟ لأيِّ شيءٍ تتوارَى؟

قالَ عُميرٌ: أخافُ أن يَرُدّني رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم، فإنِّي صغيرٌ، وأنا أُحِبُّ الخروجَ، لعلَّ الله يرزقُني الشهادةَ.

وكانَ كما خافَ عميرٌ، فلما نظرَ إليه رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم رأى أنه صغيرٌ، والحربُ ليسَتْ منْ شُغُلِ الأطفالِ والغِلْمانِ، وما يصنعونَ في الحرب، وإنها لكبيرةٌ على الرجالِ؟

ولكنَّ عُمَيْراً ما أحبَّ أن ينصرفَ، ويقعدَ في البيتِ، أو يلعبَ معَ أَتْرابِهِ وأصدقائِهِ في المدينةِ، وإنَّهُ ليريدُ الشهادةَ في سبيلِ اللهِ!

ولكنَّ عُميراً لا يعصي رسولَ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم، ولا يعانِدُ، فإنَّهُ لا يريدُ إلا رِضا اللهِ، وهَلْ ينالُ رِضَا اللهِ إذا عَصى رسولَ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم؟ أبداً.

كانَ عميرٌ في حَيْرَةٍ وحُزْنٍ شديدٍ، هو لم يبلغْ سنَّ القتالِ، ولكنَّهُ يحنُّ إلى الشهادةِ، وإلى الموتِ في سبيلِ اللهِ، ويحنُّ إلى الجنة، ويراها غيرَ

بعيدةٍ، ولكنْ كيفَ يصلُ إليها، وهو لم يَبْلغْ سنَّ القتالِ ؟!

كلُّ ذلكَ ثَقُلَ على عميرٍ، وكانَ قلبُهُ صغيراً، فبَكى ولما بكى عميرٌ رقَّ لهُ قلبُ رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم، وكانَ رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلم رقيقاً رفيقاً فأجازَهُ.

لا تَسْألوا عنْ فرحِ عميرٍ وسرورِهِ لما أجازَهُ النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فكأنَّما نالَ تَذْكِرَةَ الجنةِ.

وخرجَ عميرٌ مع أخيهِ ومع المسلمينَ، وكلهم كبارٌ وأقوياءُ، وكانَ كما أرادَ، فقدْ قُتِلَ شهيداً في الغزْوَةِ، وسبقَ كثيراً من الشُّبانِ والشيوخِ.

رضي الله عنْ عميرٍ وأرضاهُ.

ولما خرج رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم

إلى أُحُدٍ لقتالِ قريشٍ خرجَ معَهُ منَ المدينةِ غِلمانٌ يحبُّـونَ الجهادَ في سبيلِ اللهِ، وكانوا صغاراً، لم يتجاوَزُوا الخامسةَ عشْرَةَ منْ عُمُرِهِمْ، فردَّهُمْ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآلـه وسلم، لأنَّهمْ صِغارٌ، لم يَبْلُغـوا سِنَّ القتـالِ فيكـونون كالمتاعِ ، ويشغلون الكبارَ أيْضاً يراقبونَهُمْ ويحرسونَهُمْ.

وكـانَ في هؤلاءِ الغلمانِ وَلَدٌ، اسمُهُ رافعُ بنُ خُدَيْجٍ ، وهـو دونَ الخامسةِ عشرةَ من سِنِّهِ، وكانَ يتطاوَلُ منْ شدَّةِ الشَّوْقِ، ليظُنَّ الناسُ أنَّهُ كبيرٌ، قد بلغَ سنَّ القتالِ ، فلا يُفْطنَ لصِغَرِ سنِّهِ وضعفِهِ.

ولكنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم ردَّهُ، لأنَّهُ عرفَ أنه صغيرٌ، وأنه يتطاوَلُ، فشفَعَ لَهُ أبوهُ، وقال: يا رسولَ الله! إنَّ ابْني رافعاً رامٍ ، فأذِنَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم.

ففـرِحَ رافعٌ كثيراً لما أذنَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم، وخرجَ معَ المجاهدينَ، وهوَ أكثرُ سروراً منْ غلمانٍ يخرجونَ إلى المصلَّى يومَ العيدِ في لباسٍ جديدٍ.

وكانَ ولَدٌ آخرُ اسمُهُ سَمُرَةُ بنُ جنُدُبٍ في سنِّ رافعٍ، فعُرِضَ على رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم بعدَ رافعٍ فردَّهُ رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم لصِغرِهِ أيضاً، فقالَ سَمُرَةُ: لقدْ أجَزْتَ رافعاً وردَدْتَني، ولَوْ صارعْتُهُ لصَرَعْتُهُ.

فأمرَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم سَمُرَةَ ورافعـاً بالمصـارَعَةِ، فصرعَ سمرةُ رافعاً كما قال، واستحقَّ أن يسمحَ له بالدخولِ في صفِّ المجاهدينَ.

فأجازَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم سمرةَ

للخروخِ ، فخرجَ سمرةُ، وقاتلَ يومَ أُحُدٍ في سبيلِ اللهِ .

رضي اللهُ عنْ رافعٍ وسَمُرَةَ، ورزقَنا اتِّباعَهُما

من دون أُحُــد

خرجَ رسولُ الله ﷺ إلى بَدْرٍ لقتالِ المشركينَ وخرجَ معَهُ منْ حضرَ منَ المسلمينَ.

خرجَ رسولُ الله ﷺ وثلاثُ مائةٍ وبضعةُ عشَرَ منْ أصحابِهِ، ولم يعلَمْ بذلكَ كثيرٌ منَ المسلمينَ.

خرجَ بعضُ المسلمينَ يَرْعى إبلَهُ وخرجَ بعضُهمْ يَسْقي زرعَهُ، وخرجَ بعضُهم يحرسُ بُسْتانَهُ، وخرجَ بعضُهم يفتحُ دكَّانَهُ.

وانتشروا في حاجاتِهم لأنَّهمْ أهلُ جدٍّ وشُغُلٍ.

ولا يَعْرفونَ أنَّ رسولَ الله ﷺ خارجٌ إلى بدرٍ أو غيرِ بدرٍ، وذهبَ أَنَسُ بنُ النَّضْرِ لبعضِ شأنِهِ.

ولا يدْري أنَّ رسـولَ الله ﷺ خارجٌ اليومَ إلى

بدرٍ، لَوْ عرفَ الرجلُ ذلكَ لما فارقَ رسولَ اللهِ ﷺ .

ولَمَا برَحَ مجلِسَهُ ذلكَ اليومِ .

إنَّهُ كانَ حريصاً على الجهادِ في سبيلِ اللهِ .

إنه كانَ حريصاً على الشهادةِ في سبيلِ اللهِ .

ونصَرَ اللهُ المسلمينَ في بدْرٍ، فَهَزموا المشرِكينَ شَرَّ هزيمةٍ .

وأَمَدَّ اللهُ المسلمينَ بأَلْفٍ منَ الملائكةِ مردِفينَ[1]

وقتلَ المسلمونَ سبعينَ منَ المشرِكينَ، وأسَرُوا منهمْ سبعينَ .

وقُتِلَ أبو جهلٍ بنُ هشامٍ ، وعُتْبَةُ بنُ ربيعَةَ ، وقُتِلَ وليدُ وشَيْبَةُ .

---

(١) رَدِفَ ردْفاً تبعَهُ، ورَكِبَ خَلْفَهُ وصارَ لَهُ رِدْفاً، وأرْدَفَ تَوالى وأَرْكَبَهُ معَهُ .

وكَـانَ يومُ بدرٍ يومَ الفُـرْقـانِ، وكانَ يوماً على الكافرينَ عَسيراً.

رضي الله عنْ أصحابِ بدرٍ وآتاهُمْ مغفرةً منْهُ وأَجْراً كبيراً.

ولمَّا عَلِمَ أنسُ بنُ النَّضْرِ أنَّ رسولَ اللهِ صلّى الله عليه وآله وسلّم خرج إلى بدرٍ وقاتَلَ المشركينَ.

وأَنَّ المسلمينَ خرجُوا معه وقاتلوا المشركينَ.

وعلم أَنَّ يومَ بدرٍ كانَ يومَ الفُرْقانِ.

يوماً فَرَّقَ بينَ أولياءِ الرحمنِ وأولياءِ الشَّيطانِ.

يومـاً ابيضَّتْ فيهِ وجـوهُ المسلمينَ، واسودَّتْ وجوهُ المشركينَ.

حَزِنَ أنسٌ على غيبتِهِ حُزْناً شديداً.

وجاءَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ متأسِّفاً حزيناً وقال له:

«يا رسـولَ اللهِ غِبْتُ عنْ أوَّلِ قتـالٍ قاتلتَ

المشركينَ، لئنِ اللهُ أَشْهدَني قتالَ المشركينَ لَيَرَيَنَّ اللهُ ما أَصْنَــعُ».

قالَ أنسٌ ذلكَ بصوتٍ فيه الحزنُ وفيه الشجاعةُ.

وفيه الإيمانُ وفيه التوكُّلُ على اللهِ.

منَ المؤمنين رجالٌ لو أقسَمُوا على اللهِ لأبرَّهُمْ، ولَوْ تكلَّمُوا عن أنفسهِمْ لصدَقَهُمْ، وبقيَ أنسٌ ينتظرُ ذلكَ اليومَ الذي يَشْفي فيهِ نفسَهُ ويُرْضِي فيه ربَّهُ.

وبقيَ أنسٌ لا يطيبُ لَهُ طعامٌ ولا شرابٌ، ولا يسكُنُ إلى أهلٍ ولا أصحابٍ.

رجَعَ المشركونَ من بدرٍ وقد قُتِلَ منهم سبعونَ وأُسِرَ منهم سبعونَ.

ورَجَعُــوا إلى مكــةَ وقــدْ أظلَمَتْ لهم الـدنْيا وضاقَتْ عليهمُ الأرضُ.

رجَـعــوا إلى مكَّــةَ لا يرفعــونَ رؤوسَهُمْ منَ الخجَلِ ، لقدْ هُزِموا هزيمةً منكَرَةً في بدرٍ.

ماذا يقولُ الناسُ عنْ قُرَيْشٍ ، لقدْ هزَمَ ثلاثُ مائةٍ وثلاثَةُ عشرَ رجلاً ألفَ فارسٍ من قريشٍ ، وَاعَجبَاهُ! .

أيْنَ الذي كُنَّا نسمعُهُ منْ شجاعةِ قريشٍ ، ومنْ فروسيةِ قريشٍ ، ومنْ عِزَّةِ قريشٍ ؟

لقدْ طارَ ذلكَ في الآفاقِ، وانتشرَ في القبائلِ ، وتحدَّثَ الناسُ به في المجالسِ !

وكيفَ يخفَى مثـلُ بدرٍ على النـاسِ ، وكيفَ يخفَى قتلُ أبي جهلٍ ، وقتلُ عتبةَ على القبائلِ ؟!

وكيفَ تواجــهُ قريشٌ النـاسَ في المَـوْسِمِ ، وكيفَ تفتخِرُ عليهم في مِنَى؟

ومـاذا تقـولُ عنْ محمدٍ وأصحابِهِ، وقد هَزَموا جيشَها بالأمْسِ هزيمةً مُنْكَرةً؟

عزمَتْ قريشٌ على أن تخرجَ منْ هذه المشكلةِ.
عزمَتْ على أنْ تأخُذَ ثأرَ بدرٍ، عزمَتْ على أنْ تَغْسِلَ عنها عارَ بدرٍ.
إنَّ هذا هُوَ الحلُّ الوحيدُ، إنَّ هذا هوَ الأمرُ الرشيدُ.

ولمَّا بلغَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم خروجَ المشـركينَ منْ مكـةَ جمَـعَ أصحابَهُ، وقالَ لهمْ: ماذا ترَوْنَ؟ هلْ نقاتلُهُمْ في المدينةِ أو نخرُجُ إليهِمْ؟

وكانَ مِنْ رَأْيِ الشيوخِ أنْ يبقَى المسلمونَ في المدينةِ ويقاتلوا المشركينَ.

وكـانَ ذلـكَ ما يراهُ النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وكانَ هذا هوَ الرأْيُ.

وكـانَ الشبـانُ يرَوْنَ أن يخـرجَ المسلمونَ منْ المدينةِ ويقاتلوا المشركينَ ليظهرَ بلاؤهُم وجلادَتُهم.

وتنـازلَ الرسولُ صلَّى الله عليه وآله وسلم إلى رأيِهِم وخرجَ منَ المدينةِ.

ولمـا كانَ في الـطريق انعزلَ عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ بنحْوِ ثُلُثِ العسكَرِ، وكانَ رأْيُهُ أنْ لا يخرجَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم منَ المدينةِ، وقالَ تُخالفني وتسمَعُ منْ غَيري؟.

وهكذا كانَ المسلمونَ سبعَ مائةٍ فيهم خمسونَ فارساً.

واستعملَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم

عبدَ الله بنَ جُبَيْرٍ على الرماةِ ـ وكانوا خمسينَ ـ وأَمَرَهُ وأصحابَهُ أن يلزموا مركزَهُمْ، وأن لا يفارِقوهُ، ولو رأَوُا الطيرَ تتخطفُ العسكرَ.

وأمرَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم الرماةَ أن يرموا المشركينَ لئلّا يأتوا المسلمينَ مِنْ ورائهم.

وأعطى اللواءَ مصعبَ بنَ عميرٍ ودفعَ سيفَهُ إلى أبي دجانَةَ وكانَ شجاعاً بطلاً.

ودارَتْ رَحى الحربِ.

ودارَتْ رَحى الحربِ، وكانت الدولةُ أوَّلَ النهارِ للمسلمينَ على الكفارِ.

وانهزمَ عدوُّ الله وولَّوْا مُدْبِرينَ حتى انتهَوْا إلى نسائهم ولكن يا لَلأْسفِ! لم يحفظِ الرماةُ قولَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم وعملوا برأيِهِم.

لقدْ أمرَهُم رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم أن يلزمـوا مركـزَهُمْ، وأن لا يفارقوه، ولو تخطَّفَتِ الطيرُ العسكرَ.

لو فعلوا ذلكَ ولزِمو مركزهُم لكانَ خيراً لهم، ولكنَّ ذلكَ لمْ يكنْ.

لمـا رَأى الـرمـاةُ هزيمةَ الكفارِ تركوا مركزهَمْ الذي أَمَرهم رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم بحفظِهِ.

وقالوا: يا قومُ الغنيمةَ! الغنيمةَ!

وذَّكرَهم أميرُهم عبدُ الله بنُ جبيرٍ عهْدَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم وقالَ: يا قومِ أَلَمْ يَقُلْ لكم رسـولُ الله صلَّى الله عليه وآلـه وسلم: الْزَموا مركزَكُم ولا تفارقوه ولَوْ تخطَّفَتِ الطيرُ العسكرَ.

ولكنَّ أصحابَ عبدِ الله لم يسمعوا قولَهُ، وظنُّوا أنَّ المشركينَ قد انهزموا، وأنهم لا يرجعونَ، فلماذا نبقى في مكانِنا؟.

وهـا أولئك أصحابُنا يأخُذونَ الغنيمةَ، فلماذا نتركُها نحنُ؟

إنَّ الحربَ قد انتهَتْ، وراحَ المشركونَ، فلا رجعَةَ لهُمْ!.

فما معْنَى البقاءِ هنا إذَنْ؟ إنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم لم يُرِدْ ذلك! إنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم لم يأمرْ بذلكَ.

وذهبَ هؤلاءِ وبقِيَ عبدُ الله يحفظُ الثَّغْرَ.

رضي الله عن عبدِ الله وعفا عن أصحابِهِ.

وكَرَّ فرسانُ المشركينَ فوجَدُوا الثغرَ[1] خالياً، قد

---

(١) الثَّغْرُ: المكانُ الذي يُخافُ منه هجومُ العدوِّ.

خلا منَ الرماةِ فدخلوا منه واجتمعوا بعدَ ما تفرَّقُوا.

وقُتِلَ عبدُ الله بنُ جبيرٍ ومَنْ بقيَ معه منْ أصحابِهِ.

وقُتِلَ سبعونَ منَ الصحابةِ فأكرمَهُمُ اللهُ بالشهادةِ.

وانكشفَ المسلمونَ وثبتَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم وجماعةٌ منْ أصحابِهِ.

ووصلَ المشركونَ إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم فجرحوا وجهَهُ وكَسرُوا رباعيَّتَهُ، وهشَّمُوا البَيْضَةَ على رأسِهِ، ورمَوْهُ بالحجارةِ حتى وقعَ في حُفْرةٍ.

فأخذَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه بيدِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم، واحتضنَهُ طلحةُ بنُ عبيدِ الله رضي الله عنه.

ونشبَتْ حلْقَتــانِ منْ حِلَقِ المِغْفَــرِ في وَجْـهِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم فانتزَعَهُما أبو عبيدةَ رضي الله عنه، وعضَّ عليهما حتى سقَطَتْ ثَنِيَّتَاهُ.

يا لهما منْ ثنيَّتَيْنِ مباركتَيْنِ! يا لهما من ثَنِيَّتَيْنِ ثمينتين!

قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: غابَتْ حَلْقَةٌ مِنْ حِلَقِ المغفرِ[1] في وجْنَةِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم فذهبْتُ لأنزِعَها عنِ النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فقالَ أبو عبيدةَ رضي الله عنه نشدتُكَ بالله يا أبا بكرٍ، إلا تركتَني فذهبَ ينـزعُها حتى سقَطَتْ ثنيَّتُهُ.

قالَ أبو بكر: ثم ذهبْتُ لآخذَ الآخرَ، قالَ أبو

---

(١) ما يلبَسُهُ المحاربُ تحتَ القُلُنْسُوَةِ مِنْ حديدٍ.

عبيدةَ: نشدتُكَ باللهِ يا أبا بكرٍ إلا تركْتَني، قال فأخذَ أبو عبيدةَ السهمَ بفيهِ حتى سقطَتْ له ثنيةٌ ثانيةٌ.

امتص مالكُ بنُ سنانٍ رضي الله عنه الدمَ منْ وجنتِهِ، فقيل له: مُجَّه فقال: والله لا أَمُجُّهُ أبداً.

وتقدَّمَ المشركونَ إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم وأرادوا شراً، وأبى اللهُ ذلكَ والمؤمنونَ.

وحالَ دونَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم عشرةٌ منَ الصحابةِ فقُتِلوا جميعاً، ولم يبقَ منهم أَحَدٌ.

وترَّسَ أبو دجانةَ رضي اللهُ عنه على رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم بظهرِهِ، والنبلُ يقعُ فيه وهو لا يتحركُ.

وترَّسَ عليه طلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ بيدِهِ والنبلُ يقعُ فيها حتى شُلَّتْ.

ما أكْرَمَهُ منْ ظَهْرٍ! وما أكْرَمَها منْ يدٍ!

وأرادَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم أنْ يعلُوَ صخرةً فلمْ يستطعْ لما به منْ ضعفٍ وجراحٍ.

فجلسَ طلحةُ تحتَهُ حتى صعدَها، يا لَهُ منْ مطيَّةٍ ويا لَهُ منْ راكبٍ!

وقاتلَتْ أمُّ عمارةَ قتالاً شديداً، وضربَتْ عمرو ابنَ قمئةَ بالسيفِ ضَرَباتٍ وضربَها عدوُّ اللهِ بالسيفِ فجرحَها جُرْحاً شديداً.

وبقي رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم مرةً في سبعةٍ من الأنصارِ ورجلَيْنِ من قريشٍ، هجمَ المشركونَ، فقالَ منْ يردُّهم عنِّي وله الجنةَ، فتقدَّمَ رجلٌ من الأنصارِ فقاتلَ حتى قُتِلَ.

ثم هَجَموا فقالَ منْ يردُّهُمْ عنِّي فله الجنةَ وهو رفيقي في الجنةِ فلمْ يزلْ كذلكَ حتى قُتِلَ السبعةُ.

وثبتَ أنسُ بنُ النَّضْرِ رضي الله عنه وقالَ: اللهم إني أعتذرُ إليكَ مما صنعَ هؤلآءِ - يعني المسلمين - وأبرأُ إليكَ مما صنع هؤلآءِ - يعني المشركين -.

ومرَّ أنسٌ بقومٍ منَ المسلمينَ قد ألْقَوْا بأيديهِمْ فقالَ: ما تنتظرونَ؟

قالوا: قُتِلَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم!

فقالَ ما تصنعونَ بالحياةِ بعدَهُ؟ قُوموا فموتوا على ما ماتَ عليه! ولقيَ أنسٌ سعدَ بنَ معاذٍ رضي الله عنهما، فقالَ: يا سعدُ إني لأَجِدُ ريحَ الجنةِ من دونِ أُحُدٍ.

وتقدَّمَ أنسٌ إلى الجنةِ وهو يراها أمامَهُ، فقاتلَ الذين كانوا يريدونَ أن يحولوا دونَها.

وقاتلَ أنسٌ قتالاً شديداً حتى قُتِلَ وبه بضعُ

وثمانونَ ضربَةً ما بينَ طعنةٍ برمحٍ ، وضَرْبةٍ بسيفٍ، ورميةٍ بسهْمٍ .

ووجـدَهُ المسلمونَ قد قُتِلَ ومَثَّلَ به المشركونَ فما عرفَهُ أَحَدٌ إلا أختُهُ ببنانِهِ[1] .

رحمةُ الله عليكَ يا أنسُ! فليكن الرجالُ هكذا، وهكذا فليكنِ الأبطالُ! .

---

(١) سيرة ابن هشام وزاد المعاد.

على الخشبة

كانَ أصحابُ النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم يعبــدونَ ربَّهُم، ويشْتغلونَ بالتجــارةِ والــزراعــةِ ويشتغلونَ بالصنــاعــاتِ كالحِياكـةِ، والخِياطـةِ، والحِدادةِ، والنجارةِ، والدباغةِ وغيرِ ذلكَ.

فكـانـوا عباداً وطلبةَ علْمٍ، وتجاراً وفلاحينَ، وصنَّاعِينَ، وكانوا مسلمينَ أولاً وكانوا مسلمينَ آخراً.

وكـانـوا كأوسـاطِ الناسِ، يأكُلونَ ويشربونَ، ويتكلمونَ ويضحكونَ، ويبيعونَ ويشترونَ، ويزرعونَ ويصنعونَ، إلا أنَّ كلَّ ذلك في سبيلِ اللهِ، لأنهم يبتغونَ به وجْهَ اللهِ.

كانوا يعبدونَ ربَّهم لأنهم خُلِقوا لأجْلِهِ: ﴿وما

خَلقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلا ليعبدونِ﴾.

وكـانـوا يطلبـونَ العلمَ لأنَّهم سمِعـوا: ﴿ومـا يعقِلُها إلا العالمونَ﴾ وسمعوا: ﴿إنَّما يَخْشى اللهَ منْ عبادِهِ العُلمَاءُ﴾.

وكانوا يشتغلونَ بالتجارةِ والزراعةِ والصناعاتِ لأنهم سمعـوا: ﴿فإذا قُضِيَتِ الصلاةُ فانْتَشِروا في الأرضِ وابتغُـوا منْ فضـلِ اللهِ﴾ حتى إذا سمِعوا مُنادياً ينادي: ﴿انْفِروا في سبيلِ اللهِ﴾ وسمِعوا قائلاً يقـولُ: ﴿قـومُـوا إلى جنَّـةٍ عرضُهـا السمـاواتُ والأرضُ﴾ تركُـوا التجـارةَ والـزراعـةَ والصنـاعـاتِ وخرجُوا للجهادِ في سبيلِ اللهِ.

وتـركُـوا الأهـلَ، والأموالَ، والأولادَ، والدارَ، والوطنَ وخرجُوا في سبيلِ اللهِ.

ولمـاذا لا يفعلونَ ذلـكَ وهمْ يسمعـونَ نبيَّهم

يقولُ: «لَغدْوَةٌ في سبيلِ اللهِ أوْ رَوْحَةٌ خيرٌ منَ الدنيا وما فيها».

ويسمعونَهُ يقولُ: «والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ لودِدْتُ أن أغزُوَ في سبيلِ اللهِ فأُقتلَ ثم أغزُوَ فأُقتلَ ثمَّ أغزُوَ فأُقتلَ».

ويسمعونَهُ يقولُ: «إنَّ أبوابَ الجنَّةِ تحتَ ظلالِ السيوفِ» ويقولُ: «إنَّ مُقَامَ أحدِكُمْ في سبيلِ اللهِ أفضلُ منْ صلاتِهِ في بيتِهِ سبعينَ عاماً».

أرادَ النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم يوماً أن يبعثَ جماعةً منَ المسلمينَ إلى أرضِ العدوِّ تعرفُ له أخبارَ المشركينَ.

وكانَ يعلمُ أنها أرضُ العدوِّ، وأنَّ المشركينَ بالمرصادِ فاختارَ عشْرةَ رجالٍ لا يحبونَ الحيْاةَ ولا يكرهونَ الموتَ، وأمَّرَ عليهم عاصمَ بنَ ثابتٍ

الأنـصـــاريَّ رضـــي الله عنـــه، ودَّعَ هؤلآءَ أهـلَهُم وأولادَهُم وأصدقاءهم: لأنهم يعلمونَ أنهم خارجونَ إلى أرضِ العدوِّ، وأنَّ المشركينَ بالمرصادِ.

وقالوا لأهلِهم وأولادِهم وأصدقائهم: وداعاً أيُّها الأحبةُ وإلى اللقاءِ غداً يومَ القيامةِ.

وانطلقوا منَ المدينةِ وساروا في سبيلِ اللهِ حتى وصلوا إلى مَوْضعٍ يقالُ لهُ الهدأَةَ(١) بين عسفان ومكة.

وذهبَ إلى بني لحيانَ رجلٌ يسعى وقالَ لهم: هلْ تعلمونَ أنَّ بالهدأةِ جماعةٌ منَ المسلمينَ؟

قالوا: واللهِ ما ندري وما عندَنا منهم خبرٌ!.

قال: فإنهم واللهِ بالهـدأةِ، لقـد رأيتُهم، واللهِ بعَيْني هذه، وجئتُ لأخبرَكُم بهم لتَرَوْا فيهم رأيَكُم.

---

(١) موضع بين عسفان ومكة.

قالوا: جُزِيتَ خيراً، وكمْ همْ يا أخا بني فُلانٍ؟.

قال: أراهم لا يزيدونَ على عشْرةَ.

قالوا: فينبغي لهم مائةُ رجلٍ لأنَّ الواحدَ منْ هؤلآءِ يساوي عشْرةً، أما سمعتم قولَ ربِّهم: **﴿يا أيها الذينَ آمنوا إن يكُنْ منكم عشرونَ صابرونَ يغلبوا مائتينِ وإن يكنْ منكم مائةٌ صابرةٌ يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قومٌ لا يفقهونَ﴾**[1].

أما رأيتُمْ كيفَ هَزَموا بالأمسِ - وهم بِضْعُ وثلاثُ مائةٍ - جيشَ قريشٍ، وقتلوا منْ سادتِنا ورؤسائنا.

واللهِ لا ننْسى أبا عكرمةَ سيدَ قريشٍ، ولا ننْسى أبا الوليد، ولا ننْسى شِبْلَهُ.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٥.

يا قَتْلى بدرٍ كَمْ لكم في أعناقِنا منْ حقٍّ وذمةٍ!
قوموا أيها الإخوانُ ندركْ ثأْرَ بدرٍ.

وقامَ مائةُ رجلٍ من بني لحيان وقالوا: إلى أعدائنا، إلى الهدأةِ حيثُ ندركُ ثأْرَ بدرٍ.

وانطلقوا يسألونَ عن هؤلآءِ العشْرةِ، هلْ رأيتُمْ يا ناسُ رجالاً منْ يثربَ، هلْ رأيتُمْ أحداً يُصَلي؟.

وذهبوا يَرَوْنَ آثارَهُم في الرملِ حتى اهتدَوْا إلى مكانِهِم وفرِحُوا جداً.

فلما أحسَّ بهم عاصمٌ وأصحابُهُ لجؤوا إلى موضِعٍ فأحاطَ بهمُ القومُ.
فقالوا: انزِلوا فأعطُوا بأيديكُم ولكُمُ العهدُ والميثاقُ أن لا نقتلَ منكم أحداً.

ولكنَّ عاصماً كانَ يعرفُ أنَّ الكافرَ ليسَتْ لهُ ذمةٌ ولا عهدٌ، وما لَهُ وفاءٌ ولا أمانةٌ، وأنَّ الكافرَ لا

يمنعُهُ منَ الغدرِ شيءٌ.

إنه سمعَ اللهَ يقولُ عن الكفارِ والمشركينَ: ﴿**لا يرقُبونَ في مؤمنٍ إلّاً ولا ذِمَّةً**﴾ ويقول: ﴿**إنهم لا أيْمانَ لهم**﴾.

أَمَا جاؤوا بالأمسِ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وقالوا لهُ: ابعَثْ معَنا رجالاً يعلِّمونا القرآنَ والسنَّةَ، فبعَثَ إليهم سبعينَ رجلاً منَ الأنصارِ، يقالُ لهُمُ القُرَّاءُ، فعَرضُوا لهم فقتلوهُمْ قبلَ أنْ يبلُغوا المكانَ.

كانَ عاصمٌ يعرفُ ذلك جيداً، فكانَ لا يثقُ بكافرٍ، ولا يغترُّ بأحدٍ، فأبى أن يثقَ بهؤلآءِ، وهمْ لا يؤمنونَ باللهِ ولا باليومِ الآخِرِ، فماذا يمنعُهم منَ الغدرِ، وأيُّ شيءٍ يحمِلُهم على الوفاءِ؟!

قالَ عاصمٌ: أيها القومُ، أمَّا أنا فلا أنزلُ على

ذِمَّةِ كافرٍ، اللهم أخبر عنا نبيَّكَ صلَّى الله عليه وآله وسلم.

وغضِبَ المشـركونَ، وأطلَقوا على المسلمينَ السِّهامَ ورَمَوْهـم بالنبلِ، وقتلوا عاصماً، وقتلوا معَهُ ستةً.

وأكرمَ اللهُ عاصماً بالشهادةِ، وكانَ في ذمةِ اللهِ وحـدَهُ، فبعثَ لَهُ مثـلَ الظُّلَّةِ منَ النحْلِ، فكانَتْ تحميهِ وتحرُسُ جسدَهُ.

وكانَ عاصمٌ قد قَتَلَ رجلاً من عظماءِ قريشٍ فبعثوا إليه رجلاً يأتي بشيءٍ منه ليعرِفوا أنه قُتِلَ.

وأبى اللهُ أن يَمَسُّوا جسدَهُ وهوَ في ذمتِهِ، أبى أن ينـزلَ في ذمةِ كافرٍ، ورأَوا النحلَ تحميهِ، فخافوا، ولم يجدوا إليهِ سبيلاً، ورجعوا ولَمْ يقدِرُوا أن يقطَعُوا منه شيئاً.

ولمَّا رأى أصحابُ عاصمٍ أنَّ عاصماً قد قُتِلَ، وأنهم إذا قُتِلوا جميعاً مَنْ يَعْرِفُ أخبارَ المشركينَ، ومنْ يخبرُ النبيَّ ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ بأحوالِهم؟.

وقد بعثَهم النبيُّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ليعرِفوا أخبارَ المشركينَ.

واجتهدَ عاصمٌ وكانَ لهُ أَجْرٌ، واجتهدَ أصحابُهُ وكانَ لهم أجْرٌ، وكلٌّ أرادَ وجهَ اللهِ وكلًّا وعَدَ اللهُ الحسنى.

نزَلَ ثلاثةُ نَفَرٍ على العهدِ والميثاقِ، منهم خبيبٌ، وزيدُ بنُ الدِّثِنَّةِ، ورجلٌ آخرُ.

ولمَّا استمكنَ المشركونَ منْ هؤلاءِ الثلاثةِ أطلَقُوا أَوْتارَ قسيِّهم فربطوهُمْ.

قالَ الرجلُ الثالثُ: هذا أولُ الغدْر، واللهِ لا

أصحَبُكُمْ، إن لي بهؤلآءِ أُسْوَةٌ - يريدُ القَتْلى.

فجرُّوه واجتهدوا أن يصحَبَهم، فأبى فقَتَلوهُ.

وانطلقوا بخُبَيْبٍ وزيدِ بنِ الدِّثِنَّةِ حتى باعوهُما بمكَّةَ.

وكانَ خُبَيْبٌ قدْ قَتلَ الحارثَ بنَ عامرٍ يومَ بدرٍ، فلمَّا سمعَ أبناءُ الحارثِ أنَّ خُبَيْباً - قاتِلَ أبيهم - أسيرٌ عندَ بني لحيان، ذهبوا إليهم واشترَوْهُ ليقتلوهُ بأبيهم.

ومكثَ خُبَيْبٌ عنـدَ بني الحـارثِ أسيراً، لا يدري متى يُقْتلُ، إلّا أنَّ القتلَ لا بدَّ منْهُ.

فأرادَ أن يتنظَّفَ ويستعدَّ للقاءِ ربِّهِ، فاستعارَ موسى.

ومشى طفلٌ صغيرٌ لبعضِ بناتِ الحارثِ وهي

غافلةٌ وجاءَ خُبَيْباً، والأطفالُ لا يعرفونَ العدوَّ منَ الصديقِ.

وكانَ خبيبٌ بعيدَ العهْدِ بأولادِهِ وأطفالِهِ، وكانَ خبيبٌ رقيقَ القلبِ رحيماً، والمؤمنُ بَرٌّ كريمٌ يرحمُ الضعفاءَ ويحنُّ على الصغارِ، ولا يغدُرُ ولا يقْسو.

وكانَ النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ رفيقاً رقيقاً يحبُّ الأولادَ الصغارَ، ويقبِّلُهم.

فرحَ خبيبٌ بالغلام ورفعَهُ وأجلَسَه على فَخِذِهِ ـ وموسى بيده ـ والتفتَتْ أُمُّ الصبيِّ فرأتْهُ جالساً على فخِذِ خبيبٍ ففزعَتْ.

يا لَهَوْلِ المنظرِ، الغلامُ على فخِذِ العدوِّ ـ وهو مقتولٌ غداً ـ والموسى بيدِهِ، إنها لَفُرْصَةٌ سعيدةٌ للعدوِّ، يذبَحُ الغلامَ ويَشْفي نفسَهُ.

مسكينـةٌ! ما عَرَفَتِ المؤمنَ وما جربَتْ وفاءَهُ، وكـرمَـهُ ومُـروءتـه، ما عرفَتْ أنَّ المؤمنَ تأبى عليه كرامتُه وشريعتُه أن يقتلَ الغلمانَ والأطفالَ، أو أن يسطُوَ بالشيوخِ والنساءِ في ساحةِ القتالِ، فكيفَ في البيوتِ؟!

وعرفَ خبيبٌ فزعةَ المرأةِ، فقالَ: أَتَخْشيْنَ أنْ أقتلَهُ؟ ما كنتُ لأفعلَ ذلكَ!.

وكـانَ خبيبٌ أسيراً عنـدَ بني الحـارثِ، كانَ أسيراً عنـدَ أعدائه، وقد قتلَ أباهُمْ بالأمسِ، وهم قاتلوهُ غداً.

وكانَ خبيبٌ لا يجدُ منَ الطعامِ إلا ما يقدِّمُهُ له بنـو الحارثِ لئلا يموتَ، وكيفَ يقتلونَهُ إذا ماتَ، وكيفَ يَشْفُون أنفسَهُم؟!.

ولكنَّ خبيباً كانَ ضيفَ ربِّهِ، أمَا هَجَرَ دارَهُ وأهلَهُ

وطعامَهُ وشرابَهُ في سبيلِهِ؟ فكانَ ربُّهُ يطعمُهُ ويَسْقيهِ، إنَّ اللهَ شاكرٌ عليمٌ.

وكانَ خبيبٌ قد انتقلَ منْ عالَمِ الحسِّ والمادةِ إلى عالَمِ الروحِ والغيبِ، يتمنى لقاءَ ربِّهِ، وينتظرُ الشهادةَ في كلِّ وقتٍ، وقطعَ الرجاءَ منَ الحياةِ، وخرجَ منْ سلطانِ الدنيا.

فكانَتْ تأتيه الهدايا منَ الجنةِ، ومنْ عندِ اللهِ، نُزُلاً منْ غفورٍ رحيمٍ.

وكانَتْ قصتُهُ كقِصَّةِ مَرْيَمَ ابنةَ عمرانَ: **﴿كلَّما دخَلَ عليها زكَرِيَّا المحرابَ وجَدَ عندَها رِزْقاً، قال: يا مريمُ أنَّى لكِ هذا؟ قالَتْ: هُوَ منْ عندِ اللهِ، إنَّ اللهَ يرزقُ منْ يشاءُ بغيرِ حسابٍ﴾**[1].

فكانَ خبيبٌ تأتيه الفواكِهُ والأثمارُ في غيرِ

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٧.

زمــانِهــا، وكــانَ لا يدْري أَحَــدُ منْ أينَ تأتيه هذه الأثمارُ، وهو أسيرٌ موثَقٌ بالحديدِ.

قالتْ بنتُ الحارثِ: واللهِ ما رأيتُ أسيراً خيراً من خبيبٍ، فوالله لقد وجدتُهُ يوماً يأكُلُ قِطْفاً[1] من عِنَبٍ في يــدِهِ وإنه لموثَقٌ بالحديدِ، وما بمكةَ منْ ثمرَةٍ.

وكانَتْ تقولُ: إنه لرزقٌ رزقَهُ اللهُ خبيباً.

ولكن كلُّ ذلك ـ ما رأى بنو الحارثِ مِنْ كرَمِ خبيبٍ ومِنْ كرامتِهِ عندَ الله ـ لمْ يمنعْ بني الحارثِ منْ أن يقتُلوا خبيباً.

إنَّ العــداوةَ تُعْمي وتِصمُّ، إنَّ الكفــرَ يُعْمي ويُصِمُّ، وخــرجَ بنــو الحــارثِ بخبيبٍ منَ الحــرمِ ليقتُلوهُ في الحلِّ.

---

(١) القطف الثمار المقطوفة المقطوعة.

أمَـا في الحلِّ مَنْ يخافونَهُ، أمَا في الحلِّ مَنْ يراهُم، أيجوزُ الظلمُ في الحلِّ ولا يجوزُ في الحرمِ ؟!.

ولـكنَّ الكفـرَ يُعْمي ويُصمُّ، ولكنَّ الشيطانَ يُعْمي ويُصِمُّ.

ولما أيْقَنَ خبيبٌ بالموتِ قال: دَعُوني أصَلّي رَكْعَتَيْنِ! فتركوهُ فركَعَ رَكْعتينِ.

ولمَّـا انصرفَ منْ صلاتِهِ قالَ: كنْتُ أريدُ أنْ أزيدَ، وكنتُ أحبُّ أنْ أطيلَ القيامَ أمامَ ربي، ولكني خشيتُ أنْ تقولوا: يريدُ خبيبٌ أن يتأخَّرَ عنِ الموتِ فيطيلُ الصلاةَ، لقدْ جَزِعَ خبيبٌ منَ القَتْلِ.

وها أنا ذا واقفٌ أمامَكُم فاصنَعُوا ما بدا لكُمْ.

ثمَّ قالَ: أللهم أحْصِهِمْ عدَداً، واقتُلْهم بِدَدَاً، ولا تُبْقِ منهم أحَداً، وأنْشَدَ:

فلسْتُ أُبــالي حينَ أُقْتَلُ مسْلماً

على أيِّ جنْبٍ كانَ للهِ مَصْــرعي

ورفعوا خبيباً على الخشبةِ وقاموا حولَهُ يطعَنونَهُ بالرماحِ ويتفرَّجونَ عليهِ.

ما أجــمـلَهُ منْ راكــبٍ، ومــا أقــبـحَـهـم منْ متفرِّجينَ، أيتفرجونَ على رجلٍ وَهَبَ نفسَهُ للهِ، ولمْ يبالِ أَوَقَعَ عليه الموتُ، أمْ على الموتِ وَقَعَ.

أيتفرَّجونَ على رجلٍ لم يغدُرْ ولمْ يَخُنْ، ولم يكذِبْ، ولم يظلِمْ، ولم يسألْهُم مرَّةً أن يُطْلقوهُ.

أيتفــرَّجـونَ على رجـلٍ وَثِقَ بهم فغـدَرُوا به وائْتمنَهُم فخانوهُ؟!

ولمَّــا رَفَعوا خبيباً على الخشبةِ وطعنوهُ بالرماحِ أرادوا أن يمتحنوا حبَّهُ وولاءه للنبي صلَّى الله عليه وآله وسلم.

إنَّ خبيباً على الخشبةِ قدْ نهشَتْهُ الرماحُ ومزَّقتْ جلدَهُ، وقطَّعَتْ لحمَهُ.

هنا يذهَلُ الخليلُ عنْ خليلِهِ، ويذهلُ المرء عن أخيه وأمِّهِ، وأبيهِ، وصاحبتِهِ وبَنيهِ.

نادَوْا خبيباً يقولون له: باللهِ أخبِرْنا يا خبيبُ! أتحبُّ أنَّ محمداً مكانَكَ؟.

صرخَ خبيبٌ بأعلى صوتِهِ، وقال: واللهِ ما أحبُّ أنْ يفدِيَني بشوْكَةٍ يُشَاكُها في رِجْلِهِ.

فقضوا العجَبَ بما سمِعُوا، ووَبَّخَتْهم ضمائرُهُم، فأخفَوْا ذلك وأجْهَزُوا على خبيبٍ[1].

رحمةُ اللهِ عليكَ يا خبيبُ، لقدْ سنَنْتَ سنَّةً للمحبِّينَ، وتركْتَ ذِكْراً في الآخِرينَ.

---

(١) سيرة ابن هشام، ورواه البخاري في كتاب المغازي، باب التوحيد والجهاد.

كلمةُ قتيلٍ كانت سبباً لإسلام القاتل

بَعثَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم نَفَراً منْ أصحـابِهِ على طلبِ بعضِ الناسِ ، ليدعوهُم إلى الإســلامِ ، وكـانــوا سبعينَ رَجُـلاً منْ خيارِ المسلمينَ، وكانَ في هذه السريةِ حَرامُ بنُ ملحانٍ، قتلَهُ أحـدُ المشـركينَ، وهـو جبَّارُ بنُ سَلْمَى وكانَ مُسْتبعَـدَاً أن يُسْلمَ، ولكنَّهُ أسلَمَ قريباً، فاستغرَبَ الناسُ، وسألوهُ عن سببِ إسْلامِهِ، فقالَ ما معناهُ:

«إنَّ قصةَ إسلامي أنني واجهتُ مسلِماً، اسمُهُ حرامُ بنُ ملحانٍ طعنتُهُ برُمحٍ بين كَتِفَيْهِ، ونظرتُ إلى سِنانِ الرمحِ حينَ خرجَ منْ صدرِهِ، فسمعتُهُ يقولُ: «فزتُ وربِّ الكعبةِ».

قلتُ ما معنى هذا؟ هلْ أنا في حُلُمٍ أمْ هذا كاذبٌ؟

والإنسانُ لا يكذبُ عندَ الموتِ، وإذا كانَ يكذبُ في بعضِ الأحيانِ، فعندَ الموتِ لا يكذبُ، وما جُرِّبَ على العربِ الكَذِبُ.

وكانَ لجبارِ بنِ سَلْمى حقٌ في أن يستغربَ ويَحارَ، ويقولَ في نفسِهِ، طعنْتُ رجلاً برمحٍ، ودخلَ الرمحُ من جانبٍ وخرجَ منْ جانبٍ، وخرَّ صريعاً يشحَطُ[1] في دمِهِ، ويلفظُ نفَسَهُ الأخيرَ، ثم يقولُ: «فُزْتُ ورَبِّ الكعبةِ».

إنَّه أيقنَ أنَّ زوجَهُ ستكونُ أرملةً، وأبناؤه سيكونونَ أيتاماً، إنه حُرِمَ كلَّ لَذَّةٍ في الدنيا، فلا شرابٌ ولا طعامٌ، ولا نورُ شمسٍ، ولا ضوءُ قمرٍ، ولا

---

(١) شحط بالدم: تضرج به وتمرغ فيه.

حديثٌ ولا سَمَرٌ، وليسَ له إلا حفرةَ قبرٍ، فما هذا الفوزُ؟!

وسألْتُ بعضَ المسلمينَ عن قولِهِ، فقالوا: للشهادةِ، إنه كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ، ويعرفُ ما يفوزُ به الشهيدُ منَ السعادةِ ورضا الله ونَعْماء الجنَّةِ، كأنه يراها بعينَيْهِ، فقالَ: «فُزْتُ وربِّ الكعبةِ».

قلتُ فازَ لَعَمْرُ اللهِ.

وعرفَ جبارُ بنُ سَلْمى أنَّ وراءَ هذا العالمِ عالَماً آخَرَ، وأنَّ وراءَ هذه اللذاتِ والمسرَّاتَ التي يَنْعَمُ بِها، لَذَّاتٌ ومسرَّاتٌ أَلَذُّ منها، وأعظَمُ منها، وأوسَعُ منها، وهي اللذَّاتُ والمسرَّاتُ التي لا تنقَضِي، والحياةُ التي لا تَنْتَهي، واللهُ سبحانَهُ وتعالى يقولُ:

﴿فلا تعلَمُ نفسٌ ما أُخْفِيَ لهمْ منْ قرَّةِ أَعْيُنٍ

جزاءً بما كانوا يعملونَ﴾[1].

ويقول:

﴿ولا تحسَبَنَّ الذينَ قُتِلُوا في سبيلِ اللهِ أمواتاً بَلْ أحياءٌ عندَ ربِّهم يرزقونَ، فرحينَ بما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فضْلِهِ﴾[2].

وهكـذا كانَتْ كلمـةٌ بسيطةٌ خرجَتْ منْ قلبِ مؤمنٍ، ونطقَ بها لسانُ مؤمنٍ، سبباً لإِيمانِ كافرٍ لا يؤمِنُ باللهِ ورسولِهِ واليومِ الآخِرِ، يؤمنُ بدينِ قتيلِهِ، وبـدينٍ كانَ يعـاديهِ ويحـاربُـهُ، ورُبَّ كلمـةٍ مؤمنةٍ مخلصـةٍ، صنعَتِ العجـائبَ، وهزمَتِ الجيوشَ، وفتحَتِ البلادَ[3].

(١) سورة السجدة: الآية ١٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٧٠.

(٣) القصـة رواهـا البخاري في باب غزوة الرجيع، من كتاب المغازي، وابن هشام، ق٢ ص ١٨٧.

رسَالة إلــى رسُول الله ﷺ

إذا جاءكَ قَريبٌ أو صَديقٌ، وقالَ: إني مسافرٌ إلى الـوطنِ، وسـأقابلُ أباكَ، فهَلْ تُوصِي بشيءٍ؟ وهلْ لكَ رسالةٌ إليه أحملُها منْكَ، وأبلِّغُها إليهِ؟ فلا تشكّ أنَّهُ سيجتمعُ بأبيكَ، وربَّما يسألُ أبوكَ عنكَ خبـراً ساراً، وبُشْـرى صحتـكَ، فتقولُ: اِقرأْ على والدي منّي السلامَ، وقلْ لَهُ: إنَّ ابنكَ بخيرٍ، وكما تحبُّ منْ صحةٍ وسرورٍ.

كذلكَ كانَ المسلمونَ يعتقدونَ أنَّ الموتَ جسرٌ إلى الآخرةِ، وكلُّ مَنْ عبرَ هذا الجسْرَ منَ المسلمينَ وصَـلَ إلى الآخـرةِ، واجتمـعَ هنالكَ برسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم وتشرَّفَ بزيارتِهِ، ولا بدَّ أنَّ

رسولَ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم سائلٌ عن أمتِهِ.

ويمكنُ أن لا يصلَ قريبُكَ أو صديقُكَ إلى الوطنِ لمانعٍ أو حادثةٍ، أو يصلُ إلى الوطنِ، ولا يجتمعُ بأبيكَ، ولكنَّ المسلمينَ ما كانوا يشكُّونَ في وصولِ الميِّتِ إلى عالَمِ الآخرةِ، واجتماعِ الشهيدِ برسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم.

زحفَ المسلمونَ إلى الشامِ، وكانَ النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلم أخبرَهُم: «لَتَفْتَحُنَّ كُنوزَ كِسْرى وقَيْصَرَ» وقد وعَدَهُمُ اللهُ بالنصرِ، وقالَ: ﴿**إنَّ جُنْدَنا لَهُمُ المنصورونَ، وإنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الغالبونَ**﴾ وكانوا واثقينَ بالنصرِ والفتحِ، وكذلك كانَ، فقدْ فتحُوا مدينةً بعدَ مدينةٍ، وهزموا جنداً بعدَ جُنْدٍ.

وجاءَ رجلٌ يومَ اليرموكِ إلى أبي عبيدةَ رضي الله عنه، ـ قائدِ المسلمينَ ـ فقال: إنني قد تهيأْتُ

لأمري أيْ للشهادةِ، فهل لكَ مِنْ حاجةٍ إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم.

قالَ أبـو عبيدةَ: نعمْ! تُقْـرِئُـهُ عني الســلامَ، وتقولُ: يا رسولَ اللهِ صلَّى الله عليك وآلك وسلم! إنا قد وجدْنا ما وعدَنا ربُّنا حقاً[1].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ص١٢، ج٧.

الغُرم بَدَلُ الغُنْمِ

كانَ سيدُنا أبو بكرٍ لصِّدِّيقُ رضي الله عنه يأخذُ منْ بيتِ المالِ ، وهو خليفةُ المسلمينَ، وحاكمُ دَوْلةٍ واسعةِ الأطرافِ تشمَلُ الجزيرةَ العربيةَ، وتتوغلُ في بلادِ الشامِ غزواً وفتحاً ما يكفي لقُوتِهِ وقوتِ أسرتِهِ الصغيرةِ، وكانَ تاجراً قبلَ أن يتولَّى الخلافةَ، وشغلتْهُ الخلافةُ عنِ التجارةِ، فاضطرَّ إلى أنْ يأخذَ منْ بيتِ المالِ ما يعولُهُ[1] وأهلَهُ، لأنَّهُ لا يجدُ وقتاً للتكسبِ والارتزاقِ، وذلكَ في صالحِ المسلمينَ، والانشغالِ بمهماتِ الخلافةِ، وإدارةِ البلادِ.

وكانَ الذي يأخذُهُ منْ بيتِ المالِ يكفي لإقامةِ

(١) عال الرجلُ عيالَهُ، كفاهم معاشَهم.

صُلْبِهِ وصُلْـبِ عيالِهِ منْ طعامٍ ، منْ خُبْزٍ وإدامٍ ، لا تجـدُ أمُّ عيالِهِ سبيلاً إلى التفنُّنِ فيهِ، والتوسُّعِ في المطاعمِ كما يفعلُهُ منْ بَسط الله لَهُ في الرزقِ منْ أغنياءِ الأسـرةِ وأهلِ البلدِ، وكانَتِ الأسرةُ أحْسَنَ حالاً وأنعمَ بالاً حينَ كانَ سيدُ الأسرةِ ـ الصديقُ ـ يرتزقُ بالتجارةِ.

وكـانَ لأبي بكرٍ أولادٌ صغارٌ يعتمدونَ على ما يقيمُ صُلْبَهم، ويسدُّ رمقَهم منْ طعامٍ متشابهٍ، لا يجدونَ ما يشبعُ رغبتَهم منْ حلوى وفاكهةٍ كَمَنْ كانَ في سنِّهم منْ أبنـاءِ أسَرِ المدينةِ الذينَ أغناهم اللهُ ووسَّـعَ لهم في الـرزقِ، وكـانَتْ لآبائهم حدائقُ، وتجاراتٌ، ومزارعُ.

شعـرَتْ بذلكَ الأمُّ الحنونُ وأرادَتْ أن تحلِّيَ يوماً أفواهَ الأبناءِ الصغارِ وتتسلّى بالحلوى، وهي بشرٌ

مِنَ البشـرِ، فقالتْ لزوجِها العظيمِ أن يسمح لها بذلـك يومـاً منَ الأيامِ ، ويزيدَ في راتبها منْ بيتِ المـالِ ، فقـال: إنَّ بيتَ مالِ المسلمينَ - وفيهم فقراءُ وأهلُ خصاصةٍ[1] - لا يتسع لإشباعِ الرغباتِ، والتنوعِ في المطاعمِ والمشاربِ.

فقالتْ: لو استَفْضَلْتُ[2] من نفقتِنا عدةَ أيامٍ وبقَيَتْ لنا بقيةٌ، هلْ هنالكَ مانعٌ من أن نشتريَ بها حلوى؟.

قال: لا بأسَ بذلك، وهذا يرجعُ إلى قدرتِكَ وجهدِك.

فاستَفْضَلَتْ زوجُ أبي بكرٍ الصدِّيقِ منْ نفقَتِها منْ عدَّةِ أيامٍ ما يصـلحُ لأن يشـتـريَ به حلوى،

---

(١) فقر وضيق.

(٢) أبقيت وادَّخَرْت شيئاً من النفقة.

وقـدمَتْ الـدُّرَيْهِمـاتِ إلى أبي بكـرٍ، وقـالَتْ هاكَ دُرَيْهماتٌ، تستطيع أن تشتريَ بها لنا حلوى.

ولـم يكـن من شأنِ الـصـدِّيقِ إلا أنَّـهُ ردَّ الدريهماتِ إلى بيتِ المالِ، وقال: لمن يلي أمرَهُ.

قد تحقَّقَ لدينـا أن أُسـرتَنا تستطيعُ أن تعيشَ وتقوتَ أعضاءها بأقلَّ مما تتقاضى منْ بيتِ المالِ من الـدريهماتِ، فأسقِطْ من نفقِتنا كلَّ يومٍ بقدرِ هذه الدريهماتِ، فإنها كانت زائدةً على حاجاتِنا، وليسَ بيتُ مالِ المسلمينَ لتترفَّهَ به أسرةُ الخليفةِ وتتوسعَ به في المطاعمِ.

وهكـذا كان، فنقصَ من راتبِ كلِّ يومٍ بقدرِ هذه الدريهماتِ(١)، وكان منْ حظِّ الأسرةِ السعيدةِ الصـالحةِ ـ التي كان يحكُمُ سيدُها بلاداً واسعةً،

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج٢ ص٤٢٣.

وتأتيه الغنائمُ والثرواتُ من أطرافٍ كثيرةٍ ـ الغُرْمَ بَدَلَ الغُنْمِ ، ولم تستطع أن تحققَ رغبتَها فيما اشتهتْهُ منْ حلوى، بل اضطرتْ إلى أن تقتنعَ براتبٍ أقلَّ مما كانت تنـالُـهُ كلَّ يومٍ من بيتِ المالِ ، ورضيَتْ السيدةُ زوجُ الصـدِّيقِ بما فعلَهُ زوجُها العظيمُ ولم تعتبرْهُ غُرْماً وخسارةً، وصدقَ اللهُ العظيمُ : ﴿**الطيباتُ للطيبينَ والطيبونَ للطيباتِ**﴾[1] .

وضـربَ سيدُنـا أبـو بكـرٍ مثـالاً لمن يلي أمرَ المسلمينَ، ويفضلُ الزهدَ والقناعةَ على التوسعِ في المـطاعمِ والمشـاربِ، وقضاءِ حاجاتِ النفسِ ، ويرجحُ الآخرةَ على الدنيا، «وما عندَ اللهِ خيرٌ وأَبْقى» .

ورضيَ اللهُ عن أبي بكرٍ وعن الخلفاءِ الراشدينَ المهديينَ.

---

(١) سورة النور: الآية ٢٦ .

رحلة سيّدنا عمر بن الخطّاب

إلى بيت المقدس

استمرَّ الفتحُ في بلادِ الشام في خلافةِ سيّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى وصل إلى القدس، وفيه المسجد الأقصى المبارك.

هنالك طالبَ المسيحيون الذين كانوا يحكمون بلاد الشام والروم، أن يأتي خليفةُ المسلمين بنفسِهِ، ويكتبَ صكَّ الصلحِ بيده فيسلموا إليه مفاتيحَ المسجدِ الأقصى المبارك، لأن الأمرَ ليس بهيّنٍ، وليس القدسُ كسائر المدنِ والبلاد، بل له شأنٌ ليس لبلدٍ آخر، وهو الذي بناه نبيُّ الله سليمان عليه السلام، وصلَّى فيه الأنبياء بعده، فلا بد أن

يسلِّمَ ـ إن كان لا بد من التسـليمِ ـ إلى وليِّ الأمرِ وخليفةِ المسلمين رأساً.

وكتبَ قائدُ جيوش المسلمين سيِّدنا أبو عبيدة رضي الله عنه بذلك إلى أمير المؤمنين، وقال: إنَّ فَتْـحَ بيتِ المقدس متوقِّفٌ على قدومه، واستشار سيِّدنا عمر رضي الله عنه في ذلك الصحابة رضي الله عنهم ـ شأنه في القضايا الكبيرة ـ وتوقف بعض الصحـابـة في أمـر رحلته، وأشاروا عليه بالامتناع إرغاماً لأنوف المسيحيين، ولكنَّ سيدنا علياً رضي الله عنه أشار عليه بالتوجه إلى القدس لِما في ذلك من شرف وسعادة، وتخفيف على المسلمين.

وقبل عمر رضي الله عنه ذلك واستعدَّ للرحلة، واستخلف علياً رضي الله عنـه على المدينة وتوجه إلى الشام.

وننظر كيف سافر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو الذي يهابه ملكُ الروم وملكُ فارس، واسمه يملأ القلوبَ والآذان هيبةً ورُعباً، وكان أقل منه منزلة وأصغر منه نفوذاً وحكماً، إذا سافر إلى بلد في إمارته وحكمِهِ، فضلاً عن بلاد بعيدة ودولة كانت في حكم الآخرين زماناً طويلاً، تشخص فيه الأبصارُ إلى رؤية الحاكم الفاتح والاطّلاعِ على موكبه ومظاهر عظمته، ولا تزالُ أخبار هذه الرحلات الملوكية تشغلُ مكاناً كبيراً في كتب التاريخ والسِّيَرِ، ويتحدث بها الناس فتملأ القلوبَ إكباراً وإجلالاً، ولكنَّ الأمرَ كان هنا على خلافِ القياس والتجارب التاريخية الكثيرة التمكررة.

وإلى القارىء العزيز خبر هذه الرحلة.

تقدَّم سيدنا عمر رضي الله عنه إلى بلاد الشام على جمل لونه لون الرماد، تلوح صلعته[1] للشمس، رجلاه بين شعبتي رحله بلا ركاب، وطاؤه كساء ذو صوف، وهو ركابه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، حقيبته[2] نمرة أو شملة محشوة ليفاً، هي حقيبته إذا ركب، ووسادته إذا نزل، عليه قميص من كرابيس[3] قد رسم وتخرق جنبه، وليس عنده قميص آخر.

قال ادعوا لي رأسَ القوم فدعَوْه له، فقال اغسلوا قميصي وخيِّطوه، وأعيروني ثوباً أو قميصاً،

---

(١) الصلعة مقدم الرأس.

(٢) الحقيبة، الخريطة التي يضع المسافر فيها الزاد ونحوه.

(٣) الكرابيس الثياب الخشنة.

فأتي بقميص كتـان[1]، فقال ما هذا؟ قالوا كتان! قال: ما الكتـان؟ فأخبـروه، فنزع قميصَهُ، فغُسِل ورُقِعَ وأتي به، فنزعَ قميصَهُ ولَبِسَ قميصَهُ.

وقال له رئيسُ القومِ (المسيحيين) أنت ملكُ العربِ، وهذه بلادٌ لا تصلُحُ بها الإبلُ، فلو لبسْتَ شيئاً غير هذا وركبتْ برذَوْناً[2] لكان ذلك أعظم في أعْيُنِ الروم، فقال: نحن قوم أعزَّنا الله بالإسلامِ فلا نطلبُ بغير الله بديلاً[3].

وهكـذا كان شأن سيدنا عمر رضي الله عنه ـ أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ـ الذي كان اسمُه يُطير نومَ الملوكِ الكبار، ودويُّ فتوحِهِ يملأ الآفاق،

---

(١) الكتان نبات له زهر أزرق تنسج منه الثياب.

(٢) البرذون: التركي من الخيل.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير.

وهكذا كانت رحلتُهُ من المدينة إلى القدسِ ، يمرُّ فيهـا بمدنٍ كثيرةٍ بلغت أَوْجَ المدنيةِ والرُّقيِّ، وترنو إليه العيون وتشخَصُ إليه الأبصارُ.

وصدق الله العظيم :

﴿إنَّ العـزَّةَ لله ولـرسـولِـهِ وللمؤمنين، ولكنَّ المنافقين لا يعلمون﴾.

قدر الشيء حقّ قدره والجزاء الأوفى عَليه

إنَّ كلًّا منَّا يقدِّرُ الفعلَ الحسنَ ويعجبُ به ويشكرُ صاحبه عليه، ويُعجبُ بالسخاء، وخدمةِ المجتمع، وإغاثةِ الملهوفِ وإطعامِ الجائعِ، وتسليةِ المكروبِ، وقد يثني على صاحبه ويعترفُ بفضلهِ ويقول: أحسنْتَ، جزاكَ الله خيراً!

ولكنَّ الأعمالَ تأتي على مستوى الرجال وعلى قدر هِمَمِهم، وعلى قدْرِ ما طبعَهُمُ الله عليه، من حبِّ الخير، وقَدْرِهِ حقَّ القدْرِ، والجزاءِ الأوفى عليه، والاستهانةِ بالمالِ والعطاء في سبيلهِ، وصدَق الشاعر: «وتأتي على قَدْرِ الكرامِ المكارمُ».

كلكم تعرفون الحسنَ بنَ علي ابن السيدة

فاطمـة الزهراء بنت رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلّم وابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان أشبه ـ أو من أشبههم ـ برسول الله صلَّى الله عليه وآلـه وسلم خَلْقـاً وخُلُقاً، وقد قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم في حقِّهِ: «إنَّ ابني هذا سيِّدٌ».

وإليكم حكاية تدلُّ على علوِّ همَّتِهِ وقَدْرِ الفعلِ الحسَنِ حقَّ قدرِهِ والجزاءِ الأوفى عليه.

كان الـحـسن رضي الله عنـه مارّاً في بعض حيطانِ[1] المـدينة، فرأى أَسْوَدَ بيده رغيفٌ، يأكلُ لقمةً ويطعمُ الكلبَ لقمةً، إلى أن شاطره الرغيف[2].

---

(١) البساتين والحدائق.

(٢) جعل نصفه له ونصفه للكلب.

وكان منظراً غريباً، وشيئاً غيرَ مألوف، فإنَّ كثيراً من الرجالِ ينفردون بالطعام ويستأثرون به، ولعل الأسودَ كان هذا قوتُ يومه لا يجدُ غيرَهُ، ولكنَّهُ شاطرَ الكلبَ الرغيفَ، رغم شدة حاجته إليه، وكانَ لا بد أنَّ الكلبَ كان له متسعٌ من راتبٍ قرَّرَهُ له صاحبُهُ، أو يجدُ ما يشبعُه في الحديقة، أو مِنْ فُتاتِ مائدةِ صاحبِهِ.

وكان منظراً غريباً استرعى انتباه الحسنِ واستوقَفَهُ، وجعلَهُ يسألُ العبدَ الأسودَ:

ما حَمَلَك على أنْ شاطرْتَ الكلبَ ولم تُغابِنْهُ[1] فيه بشيء؟.

ومن المعلوم أنه لم يكن عليه رقيبٌ، ولا للكلب لسانٌ يشكو به، ولا له عليه دين أو حق يطالبُهُ به.

---

(١) لم تخدعه ولم تغلبه، ولم تنقصه.

وكان الجوابُ: «استحت عينايَ منْ عينيه أن أغابِنَهُ!».

وقد أثار هذا المنظرُ وهذا الجوابُ الإعجابَ في نفس سيدنا الحسنِ وأثار فيها المروءة التي كان له فيها النصيب الأكبر، والخُلُقَ الكريَم الذي ورثَهُ عن جدِّهِ الـذي يقول الله عنه ﴿وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم﴾ فقال للأسودِ:

غلامُ مَنْ أنتَ؟

قال الأسودُ: غلامُ أبانَ بنِ عثمانَ!

قال الحسنُ: والحائط؟

قال العبدُ: لأبَانَ!

فقال له الحسنُ: أقسمْتُ عليكَ لا برِحْتَ حتى أعودَ إليك.

فمرَّ فاشترى الغلامَ والحائطَ، وكلُّنا نستطيعُ أن نقـدِّرَ، ماذا بذلـه في شراءِ الغـلامِ، والحائطِ من

المالِ ، وما كلَّفَهُ دفعُ الثمنِ لهذه السلعةِ الغاليةِ .

وجاء إلى الغلام فقال له : قد اشتريْتُكَ!

فوقف الغلام قائماً، وقال : السمعُ والطاعةُ لله ولرسوله ولك يا مولاي!

قال الحسنُ : وقد اشتريتُ الحائطَ وأنت حرٌّ لوجْهِ الله ، والحائطُ هبةٌ مني إليك[1] .

ولا تسألْ عن دهشةِ الغلامِ ، وما غمرَهُ منْ سرورٍ، فقد انقلبَ في دقائقَ حراً، يملكُ هذا الحائط الكبيرَ الثمينَ، «وعن البحر حدِّثْ ولا حرجْ» .

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر ج٤ ص ٢١٧ـ٢١٨ .

زهد أكبر حاكم في عصرِه

كان سيدنا عمرُ بن عبد العزيز ـ الخليفةُ الأمويُّ الراشدُ ـ أكبرَ حاكم في عصرِه، يحكم الشامَ ومصرَ والعراقَ، والجزيرةَ العربيةَ وإفريقيةَ الشماليةَ الغربيةَ وإيرانَ وخراسانَ، ووصلَتْ مملكتُه إلى حدودِ الهندِ، لمَّا استُخْلِفَ خرجَ من ماله وعقارِه، وردَّهُ إلى مالِ المسلمين، ووضعَ حليَّ زوجتهِ في بيتِ المال، وبلغ من الزهد والشَّظَفِ[1] في الحياةِ، والتقشُّفِ[2] في المعيشةِ مبلغاً يعجزُ عنْهُ الزهادُ فضلاً عن الملوكِ والأمراءِ، كان يتأخَّرُ في بعض

---

(١) الضيق والشدَّة.

(٢) تقشف: ساءت حاله ورثت حياته وضاق عيشه.

الأحيانِ عن الخـروجِ إلى صلاةِ الجمعـة انتظاراً لقميصهِ أن يجفَّ، وكانت نفقتهُ اليوميةُ لا تزيد على درهمَيْنِ، وكان يتورَّعُ عن تسخينِ الماءِ على مطبخِ العـامـةِ، كانَ يُطْفىء الشمعةَ التي زيتُها من بيت المالِ إذا شغَلَهُ أحدٌ بالسؤال عن شخصِه، فقال: كيف أنت يا أمير المؤمنين وكيف عيالُـكَ؟ أطفـأ الشمعـةَ وطلبَ شمعةً يملكُها، أو ردَّ على سؤالِ صديقِهِ في الظلامِ.

دخلَ مرَّةً في بيته ليزورَ أهلَهُ ويحيِّيَهم، فرأى أنَّ كلَّ بنْتٍ منْ بنـاتِهِ إذا واجهَتْهُ وحدَّثها، تضعُ يدَها على وجهها وحدَّثَتْ، فسأل عن السبب في ذلك، فاعتـذرَتْ إليه وحدثَتْهُ أنها ما وجَدَتْ في البيتِ ما تأكُلُهُ إلا عدَساً وبصلاً، فهي تخافُ أن تصلَ إليه رائحتها، فبكى وقال: يا بناتي ما ينفعُكُنَّ أن تَعَشَّينَ

الألوانَ ويُمَرَّ بأبيكنَّ إلى النار؟ فسكتْنَ ورضينَ بهذه الحياةِ الزاهدة المتقشفةِ وأبوهنَّ أكبرُ حاكمٍ في ذلك الزمان، يتنعَّمُ عمالُهُ وكثيرٌ من أهلِ بلادِهِ بالأطعمةِ اللذيذةِ والأقمشةِ الجميلةِ الغاليةِ، والحياةِ الرخيَّةِ الناعمةِ.

ولم يكن تورُّعُه مقتصراً على ذاته بل كانت سياسةً عامة، كان يطلبُ من رجالِ دولتهِ وعمالهِ أن يكونوا متورِّعين أشحَّةً على أنفسهم أسخياءَ على المسلمين، يعتقد أنْ الدِّرْهَمَ دمٌ فلا يجوزُ أن يجريَ في غير عروقِهم، ولا يرى أن يضيع في الكمالياتِ والشكلياتِ.

طلب أحدُ عمالِه من الخليفةِ قراطيسَ يكتُبُ عليها في مصالحِ وَلايتهِ فأجابَ: «إذا جاءك كتابي هذا فأَرِقَّ القلمَ، واجْمَعِ الخطَّ، واجمَعِ الحوائجَ

الكثيرةَ في الصحيفــةِ الـواحـدةِ، فإنـه لا حاجـةَ للمـسلمينَ في فضــلِ قول أضــرَّ ببيت مالهم، والسلام عليكم».

وشكا إليه أحدُ العمال ما أصاب بيتَ المال من نقصٍ وخسارةٍ، لسبب إسقاط الجزية[1] عن الذين كانوا يُسْلمون ـ فإنه لا جِزْيَةَ على المسلمين ـ فأجابَ:

«إن الله جلَّ ثناؤه بعثَ محمداً صلَّى الله عليه وآله وسلّم داعياً إلى الإسلام ولم يبعثْهُ جابياً»[2].

---

(١) الجزيَةُ ما لزمَ الكافرَ من مالٍ لأمنِهِ واستقرارِهِ تحتَ حكم الإسلام وصَوْنِهِ.

(٢) جبى يَجْبي جبـايَةً، الخراجَ: جمعَهُ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم.

لا حاجة إلـى ذكر اسمي

إن كلَّ رجلٍ منّا ـ عفا الله عنا وعن المسلمين ـ إذا أتى بمأثرة[1] أو قام بعملٍ يسترعي الانتباهَ، ويثيرُ في النفـوسِ الإعجابَ والإكبارَ ـ يحبُّ أن يُعْرَفَ ويُمدحَ ويُذكرَ اسمُهُ ويُحفظَ، وهذه طبيعةٌ بشريةٌ لا يلامُ أحدٌ عليها.

ولكنَّ شأنَ المسلمين الـذين تخـرجـوا في المـدرسـةِ النبـويةِ، ونشؤوا في أحضـانِ التعاليمِ الإسـلاميةِ وظلالِها، كانَ شأنُهم غيرَ هذا، نشأَتْ وصـدَرَتْ منهم عجائبُ منَ الإخلاصِ، والابتعادِ عن الأنانيةِ، وحبِّ الشهرةِ والمدْحِ، لا تزالُ موضعَ

---

(١) عمل جليل يحمد عليه.

دهشةِ المؤرخين والمطلعين.

وإلى القارىء العزيز حكاية صغيرة، من هذه الحكايات الكثيرة الكبيرة.

لما هَبَطَ المسلمون المدائن ـ وهي عاصمةُ المملكةِ الساسانيةِ الفارسيةِ (إيران القديم) ـ وفتحوا البلدَ وغنموا غنائم كانت أعظم ثروة في ذلك الزمانِ، وكانَ العربُ رعاةَ الإبل، وسكانَ بيوتِ الوَبَرِ[1] أقبلَ رجلٌ بحقٍّ معه إلى قائد الجيش الإسلاميِّ والأميرِ فدفعَهُ إليه.

وكانَ عندَهُ رجالٌ، فاستغربوا من ما كان يحملهُ هذا العربيُّ الفقيرُ من ثَرْوةٍ وطُرَفٍ، فقالوا: ما رأَيْنا مِثْلَ هذا قطُّ، ما يعدِلُه ما عندَنا، ولا يقارِبُهُ، فقالوا: هل أخذْتَ منه شيئاً؟.

---

(١) الوبر: هو للإبل والأرانب ونحوها كالصوف للغنم.

فقال: أما والله لولا الله ما أتيتُكُمْ به!

فعرفوا أن للرجل شأناً، فقالوا: مَنْ أنت؟

فقـــال: لا والله لا أخبـركم لتَحْمَـدوني، ولا غيرَكم ليُقرِّظوني، ولكني أحمدُ اللهَ وأرضى بثوابِهِ.

فأتْبَعوهُ رجلاً حتى انتهى إلى أصحابِهِ، فسأل عنه، فإذا هو عامر بن عبد قيس[1].

وصدق الله العظيم:

﴿إن تخفوا شيئاً أو تبدوه يعلَمْهُ الله﴾.

---

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص ١٦.

البطل المجاهد والمسلم الرّحيم الكريم

كانَ الملكُ الناصرُ السلطانُ صلاحُ الدين الأيوبيُّ[1] معجزةً منْ معجزاتِ الإسلامِ الخالدةِ، وآيةً منْ آياتِ اللهِ الباهرةِ، هو الذي ردَّ غارةَ الصليبيينَ (المسيحيين الأوربيين) على أعقابِها واستردَّ بيتَ المقدسِ وفلسطينَ والشامَ منْ حُكْمِ الصليبيين المعادينَ للإسلامِ، وأنقَذَ الجزيرةَ العربيةَ والبلادَ المقدَّسَةَ من خطر استيلاءِ أعداءِ الإسلام الأجانب.

بعدَ معركةِ حطِّينَ[2] ١٧ ربيع الأول سنة

---

(١) وُلد السلطانُ صلاحُ الدين الأيوبي في سنة ٥٣٢هـ، وتُوفي في سنة ٥٨٩ هجرية.

(٢) كانت معركةً مصيريةً حاسمةً قَضَتْ على دولةِ فلسطينَ =

٥٨٣هـ سُرْعانَ ما حانَتِ الساعةُ المباركةُ التي كان يتلهف لها السلطانُ، ويسمو إليها ويهفو منذ أعوامٍ طوالٍ، وهو فتح بيتِ المقدسِ، يقول القاضي ابن شَدَّاد:

«وكان رحِمَهُ الله عندَهُ من القدس أمرٌ عظيم لا تحملُهُ الجبالُ»[1].

وفي ٢٧ من رجب من سنة ٥٨٣هـ دخل السلطان بيتَ المقدسِ، وبعد تسعين سنة عادَتْ هذه القبلةُ الأولى ـ التي صلَّى فيها محمدٌ صلَّى الله عليه وآله وسلم بالأنبياءِ عليهم السلام في ليلة الإسراء ـ إلى حَضانَةِ الإسلامِ ووَصايَةِ المسلمينَ،

= الصليبيةَ كانَتْ في ١٤ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ، وفتح الله للمسلمين فيها فتحاً مبيناً.

(١) النوادر السلطانية: ص ٢١٣.

وكان منْ تقديرِ العزيزِ العليمِ أنَّ السلطانَ دخل بيت المقدس في نفسِ التاريخ الذي أكرمَ الله فيه النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلم بالمعراجِ .

ويقولُ ابن شداد في موضعٍ آخر:

«وكانَ السلطانُ كثيرَ المروءةِ، نديَّ اليدِ، كثيرَ الحياءِ، مبسوطَ الوجْهِ لمنْ يردُّ عليه منَ الضيوفِ، وكانَ يكرِمَ الوافدَ عليه، وإن كان كافراً. . . ولقد رأيتُهُ وقد دخلَ عليه صاحبُ «صَيْدا» بالناصرةِ فاحترمَهُ وأكرمَهُ، وأكلَ معه الطعامَ، ومع ذلك عرضَ عليه الإسلامَ فذكرَ له طرفاً من محاسنِهِ وحثَّه عليه»[1].

وكانَ السلطانُ كريمَ النفسِ رقيقَ القلبِ، يتوجَّعُ للمظلومِ ويَرْثي له، ويَجْبُرُ مصابَهُ، يدلُّ على

---

(١) النوادر السلطانية: ص ٢٤.

هذا ما يَحْكي ابنُ شدَّادٍ في كتابه فيقول:

«ولقد كنْتُ راكباً في خدمتِهِ في بعضِ الأيامِ قُبالةَ الإفْرَنْجِ ، وقد وصلَ بعضُ اليزكيَّةِ ومعه امرأةٌ شديدةُ التخوُّفِ، كثيرةُ البكاءِ، متواترةُ الدقِّ على صدرِها، فقال اليزكيُّ: إنَّ هذه خرجَتْ من عندِ الإفرَنْجِ فسألت الحضورَ بين يدَيْكَ، وقدْ أَتَيْنا بها، فأمرَ التُّرْجمانَ أن يسأَلَها عن قصَّتِها، فقالتْ: اللصوصُ المسلمونَ دخلوا البارحةَ إلى خَيْمتي وسرقوا بِنْتي، وبتُّ البارحةَ أستغيثُ إلى بُكرَةِ النهارِ، فقالَ لي المملوكُ: السلطانُ هو أرحمُ، ونحنُ نخرجُك إليه تطلبين ابنَتَك منه، فأَخْرَجوني إليك، وما أعرفُ ابنتي إلا منك، فرقَّ لها ودمَعَتْ عينُه، وحرَّكَتْهُ مروءتُه، وأمرَ منْ ذهبَ إلى سوقِ العسكرِ يسألُ عن الصغيرةِ مَنِ اشْتراها، ويدفعُ له

ثمنَهـا ويُحضِرُها، وكان قد عرفَ قضيتَها من بكرةِ يومِهِ، فما مضَتْ ساعةٌ حتى وصلَ الفارسُ والصغيرةُ على كتِفِهِ، فما كان إلا أن وقَعَ نظرُها عليه، فخرَّتْ إلى الأرضِ تعفِّــرُ وجْهَهَـا في التـرابِ، والنـاسُ يبكونَ على ما نالَها، وهي ترفَعُ طرْفَهَا إلى السماءِ ولا نعلمُ ما تقولُ، فسُلِّمَتِ ابنتُها إليها وحُمِلَتْ حتى أعيدَتْ إلى عسكرِهم»[1].

«وكـانت وفـاتُـه بعـد صلاةِ الصبـحِ من يوم الأربعـاء السـابـع والعشـرين من صفـر سنة تسع وثمانين وخمس مائة».

يقول ابن شداد:

«إن السلطانَ لم يخلِّفْ في خزانتِهِ منَ الذهبِ والفضـةِ إلا سبعـةً وأربعين درهماً ناصريةً، وجرماً

---

(١) النوادر السلطانية: ص ٢٦.

واحداً ذهباً، ولم يخلِّفْ ملْكاً، ولا داراً، ولا عقاراً، ولا بستاناً، ولا قرية، ولا مزرعة، ولا شيئاً من أنواعِ الأملاكِ»[1] وما أمكننا أن ندخلَ في تجهيزِه ما قيمتُه حبةً واحدةً إلا بالقرضِ، حتى في ثمن التبن الذي تبنت به الطين. . . وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضرَهُ القاضي الفاضلُ من وَجْهِ حلٍّ عرفَهُ[2].

---

(١) نفس المصدر: ص ٦.

(٢) النوادر السلطانية: ص ٢٥١.

جواب كان السّبب في إسلامِ
مئات ألوف من النَّاس

لعلَّكُم سمعتم ـ أو ستقرؤون في كتب التاريخ قريباً ـ خبر غارةِ التتار على العالمِ الإسلامي، في القَرْن السابع الهجري، فكانت فتنةً عظيمةً، ومحنةً كبيرةً، هزَّتْ العالمَ الإسلاميَّ من أقصاهُ إلى أقصاهُ هزّاً عنيفاً، فكلُّ بلادٍ أو دولةٍ توجَّهوا إليها أبيدَتْ وخُرِّبَتْ، ولم يكن في العالم الإسلامي ـ على اتِّساعِهِ، وكَثْرةِ دولِه وحكوماتِهِ ـ من يستطيعُ أن يواجِهَ هذا البلاءَ العظيمَ، وغلبَ على الناسِ اليأسُ والتشاؤمُ، حتى سارَ المَثَلُ «إذا قيل لك: إنَّ التترَ انهزموا فلا تصدِّقْ» وكفى لتمثل هذا الزحف

الوحشي المبيد لكل ما عرض في سبيله ما قاله مؤرخٌ أوربيٌّ عن قائد هذا الزحفِ «جنكيز خان».

«إنَّه مَحا في طريقهِ كلَّ مدينةٍ من الوجودِ، غيرَ مجرى النهار، وملأ الصحارى باللاجئين المذعورين المشرفين على الموت، إنه لم يَبْقَ بعدَ مرورِهِ بالمناطقِ التي كانَتْ آهلِةً بالسُّكانِ في يومٍ ما منَ الأيامِ، أيُّ حيٍّ منَ الأحياءِ، إلا الكلابَ، والذئابَ، والحداءة، والسنور»(١).

وكانَ كلُّ شيء يقبلُه القياسُ ويستطيعُ أن يتكهنَ(٢) به الناسُ، إلا أنهم سيُسْلِمون ويدينونَ بدينِ المفتوحين الذين لم يكن شَعْبٌ ولا رجالٌ أذلَّ في عيونهم من المسلمين.

---

(١) الأستاذ هيرلد ليمب في كتابه «جنكيز خان» بالإنجليزية، ص ١٢.

(٢) يتنبأ به مقدماً.

ولكن تحقَّقَ ما كان يعتبرُ مستحيلاً ـ وكان ذلك بتوفيق الله تعالى بفضل الدعاة المخلصين، والعلماءِ الربانيين ـ وإليكم حكايةً من حكاياتِ هؤلاء الربانيين الكثيرة.

كان تغلق تيمور خان ابن ملك كاشغر، وكان وليَّ العهدِ، لم يتوَّجْ بعدُ، ولم يبايَعْ بالوَلايةِ، قد كان له حِمى[1] يقتنص فيه لا يدخُلُه أحدٌ غيرُه، وغير من يرافقُهُ منَ الخدَمِ والحشَمِ الذين يساعدونَهُ في القَنْصِ، وكان الملوكُ في ذلك الزمانِ غَيارى على ما يتخذونَه منْ مجالاتِ قنصٍ أو صيدٍ، ويحمونَها منْ أطرافِها، غَيرتَهم على شرفِهم وكرامتِهم، فكانت هذه الأرضُ ممنوعةً لغير وليِّ العهدِ، وفرقةِ الصيادين من جليسيه، لا يطمعُ فيها طامعٌ، ولا يدخلُها داخلٌ.

---

(١) من الأرض ما يحمى ويدافَع عنه.

ولكنَّ الله قدَّرَ ما غيَّرَ مستقبلَ الأسرةِ الحاكمةِ في تركِسْتـانَ، ومن كان يتبعُهـا من هذه الجماعةِ المدوِّخَةِ للعالمِ ، ونقلَهم من الحمى المخصَّصِ للصيدِ، والغيرةِ عليه إلى حمى السعـادةِ الأبديةِ، وحـراسةِ الإسلامِ والمسلمينَ، وإنشاءِ الحكوماتِ الكبيرةَ الواسعةَ التي تدينُ بالإسلامِ ، وترفعُ رايتَهُ .

وإليكم حكـايةً من حكـاياتِ هؤلاء الربانيين الكثيرةِ التي يرجـعُ إليهم الفضلُ في إقبالِ هؤلاءِ التترِ الوحوشِ على الإسلامِ .

خرجَ الشيخُ جمـالُ الـدين من مدينةِ بُخَارَى وكـانَ معَـهُ جمـاعـةٌ من التجارِ. ولم يتفطنوا لهذه الأرض المحميَّةِ لصيْدِ وليِّ العهدِ وحاشيتهِ، فدخلوا فيها على غفْلَةٍ واطَّلعَ على ذلك الحرسُ الملكيُّ، وأمر الأميرُ بأن توثَقَ أيديهم وأرجلُهم ، وأن يَمثُلوا بين

يدَيْهِ، وكانَ التتارُ ينظرونَ إلى الفُرْسِ (الإيرانيين) بعينِ الازدراءِ والاحتقـارِ، وجرى بين وليِّ العهدِ، والشيخِ جمال الدين الحوارُ الآتي:

قال وليُّ العهدِ في غضبٍ: كيف جَرُؤْتُمْ على دخول هذه الأرض؟

قال الشيخ: نحنُ غرباءُ، دخَلْنا فيها على غفلَةٍ وجهلٍ لا نعلمُ أننا نجوسُ أرضاً (٢)حَرَّمةً.

وسأل وليُّ العهدِ: منْ أيِّ جنسٍ أنتم؟

قالوا: نحن من الفُرْسِ.

قال الأمير: إنَّ الكلبَ أغلى منْ أيِّ فارسيٍّ.

وهناك أَلْهَمَ اللهُ الشيخَ الجوابَ الذي كان قُدِّرَ له أن يَفتحَ الفاتحين، ويُخضعَ الغالبين، ويَشرحَ صدرَ الأميرِ للإيمانِ بهذا الدين.

قال الشيخ: نعم! قد كُنَّا أخسَّ من الكلب،

وأَبْخسَ ثمناً منه، لو أننا لم نَدِنْ بدينِ الحقِّ.

احتـارَ الأميرُ بذلـك الجوابِ، وأمرَ بأَنْ يقدَّمَ ذلك الفارسيُّ الجسورُ عند عودته من الصيدِ.

ولما خَلا به سأَلَه ماذا يعني بهذه الكلماتِ وما ذلك الدينُ؟ فعرضَ عليه الشيخُ قواعدَ الإسلامِ في غَيْرَةٍ وحمـاسٍ، انفـطرَ لهـا قلبُ الأميرِ حتى كادَ يذوبُ كما يذوبُ الشمعُ، وصوَّرَ لهم الكفَر بصورةٍ مروِّعَةٍ اقتنعَ معها بضلالِ معتقداتهِ وتصوراتهِ.

ولـكنَّـهُ قال: إذا اعتنقْتُ الإســلامَ الآن لا أستطيعُ أن أهديَ رعائي إلى الصراطِ المستقيمِ، فتمهلْني قليلاً فإذا آلَتْ إليَّ مملكةُ أجدادي فعُدْ إليَّ.

وعادَ الشيخُ جمالُ الدين إلى بلدِهِ حيثُ مَرِضَ مرضـاً شديداً، فلما أشرف على الوفاةِ، قال لابنهِ

رشيـد الدين: «سيصبحُ «تغلق تيمور» يوماً ما ملكاً عظيماً فلا تَنْسَ أن تذهبَ إليه وتُقرئهُ مني السلامَ، ولا تخشَ أن تُذكرَهُ بوعدِهِ الذي قطعَهُ لي.

ولم يلبَثْ رشيدُ الــدين إلا سنينَ قليلةً حتى ذهبَ إلى معسكرِ الخانِ، وكان قد تُوِّجَ، وتربَّعَ على عرشِ امبراطوريةِ آبائهِ.

ولكنْ كيفَ يجدُ هذا الفارسيُّ الغريبُ السبيلَ إليه ويظفرُ بالمثولِ بينَ يدَيْهِ؟

لجأَ رشيدُ الدين إلى حيلةٍ طَريفةٍ شريفةٍ فصارَ يؤذِّنُ بجوارِ البَلَاطِ الملكيِّ، وذاتَ يومٍ في الصباح الباكـرِ قرَعَ الأذانُ سمـعَ الأميرِ وأقلقَ نومَـهُ وأثـارَ غضبَهُ، فسألَ منْ هذا الجريءُ الجَهْوَرِيُّ الصوتِ الذي لا يحتفلُ براحةِ الملكِ ولا يحسِبُ لها حساباً؟

أُخبـرَ بأنـه رجُـلٌ فارسيٌّ غريبٌ ينادي بأعلى

صوتِـهِ وَفْقـاً لدينـه فيؤذِّنُ ويصلِّي، فأمر بإحضارِهِ ومثولِهِ بين يدَيْهِ.

وهناكَ بلَّغَ رشيدُ الدين رسالةَ أبيه وتذكَّرَ «تغلق تيمـور» وعدَهُ، وقال: «حقاً ما زلتُ أذكرُ ذلك منذ اعتلَيْتُ عرشَ آبائي، ولكن ما بالُ الشيخِ الصالحِ لماذا لم يحضُرْ هو بنفسِهِ؟

وأخبـرهِ الشيخ رشيدُ الـدين بأنـه فارقَ الحياةَ وانتقـل إلى الـدارِ الآخرةِ، سمعَ ذلك الملكُ في مزيجٍ من الحُـزْنِ والسـرورِ، وأقـرَّ بالشهـادتين وأسلمَ، واستقبلَ الملكُ الأمراءَ واحداً بعد واحدٍ، يعـرضُ عليهمُ الإسـلامَ فأسلمـوا وأشرقَتْ شمسُ الإسلام، ومحتْ بنورِها الظلامَ، ودخلَ الناسُ في دينِ الله أفواجاً.

وهكــذا انتشــرَ الإِســلامُ في فروعِ التتــارِ

الأخـرى، والأُسَرِ المالكةِ الحاكمةِ، بفضْلِ دعاةِ الإسـلامِ المخلصين والعلماء الربانيين، والوُعَّاظِ المؤثرين، وكان كما يقول المؤرخُ الانجليزيُّ الكبير:

«نهضَ الإسـلامُ من تحت أنقـاضِ عظمتـه الأولى وأطـلالِ مجـدِه التـالـدِ، واستطاعَ بواسطةِ الدعاةِ المسلمينَ أن يجذِبَ أولئكَ الفاتحين الذين قد أنفـدوا جهـدَهم في اضـطهـاد المسلمين، ويحملهم على اعتناقه»[1].

ولا يزالُ جوابُ الشيخِ جمالِ الدين الملهمِ رداً على سؤال «تغلق تيمور» له الفضل الكبير في انتشـار الإسـلام في فرعٍ كبيرٍ من فروع التتـار

---

(١) البروفيسور آرنلد في كتاب «الدعوة إلى الإسلام» ص ٢٢٧.

الـوحشيين، ورُبَّ كلمةٍ تنبعُ من إخلاصٍ وإيمانٍ يقتـرن بها توفيق الله تعالى، وأمرُه أكبر تأثيراً وأكثر تسخيراً من جيشٍ كثيف، وسلاح كثير، وقتال طويل.

فمن عفا وأصلح فأجره على الله

قرأْنـا حكاياتٍ وأخباراً تتصلُ بالعهدِ النبوي ـ على صاحبـه الصـلاة والصلام ـ وبعصر الصحابة وعهد الخلافة الراشدة، وما تَبِعَه إلى عصرٍ كانت فيه كلمـةُ الله هي العُلْيا وسيرةُ الـرسـول وتعاليمه هي الأُسْوَةُ، وكان الخير فيه غالباً، ومنار الدين عالياً.

ولكنَّ شجرةَ الإسلامِ لم تَزَلْ تثمرُ، وخليتُهُ لم تزل تعسِـلُ، ونَحكي لكم حكايتين من حكاياتٍ تاريخية وروائعَ إيمانيةٍ وخُلُقيةٍ، يرجع عهدُها إلى القرن الثالث عشر الهجري، حين قام الإمامُ السيد أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٠١ـ١٢٤٦هـ) بتربية جمـاعـة في الهنـد ـ البعيدة عن مركـز الإسلام،

الممتحَنَـةِ بمحَنٍ دينيةٍ عقائديةٍ خُلُقيةٍ، وحكوماتٍ ضعيفـةٍ منحـرفـةٍ ـ على أسـاسِ التقوى والعقيدةِ الصحيحــةِ، واتبـاع السنـةِ والشـوقِ إلى الجهـادِ والشهادةِ، والدعوةِ إلى اللهِ، واجتهدَ وجاهدَ لإنشاءِ حكومةٍ إسلاميةٍ على منهجِ الخلافةِ الراشدةِ لتطبيقِ أحكـامِ الشـريعـةِ على النفْسِ والأهلِ، والحياةِ العامة والمجتمع[1].

نلتـقطُ من هذا التـاريخ المليء بعجـائب الانقلاب النفسيِّ، والتطورِ الإسلاميِّ حكايتَيْنِ، هذه إحداهما:

تخـاصمَ خادمٌ يقـالُ له «لاهوري» وهو رجلٌ

---

(١) راجـع للتفصيل كتـاب «إذا هبت ريح الإيمـان» للكـاتب، طبع مؤسسة الرسالة بيروت، ودار القلم، الكويت، ودار عرفات الهند.

متواضعُ المظهرِ، يخدم خيلَ المجاهدين ويعلِفُها مع رجلٍ اسمه عنايَتُ الله، له هيئةٌ ومكانةٌ عند السيد الإمام، وهو من رُفْقَتِه السابقين، وأَخَذَتِ الرجلَ حدَّةٌ، فوكَزَ لاهوري وَكْزةً وقعَ منها على الأرض، وصار يتقلب من الألم.

اتصلَ الخبرُ بالسيد الإمام، واطلع على القضيةِ فعنَّفَ «عنايت الله خان» وعذلَه عذْلاً شديداً، وقال لعلك اجترأْتَ على هذا لدالَّتِك ومكانَتِك منِّي وحقارةِ الرجلِ وضَعَتِهِ، فلا يغرنَّك هذا، فأنت ولاهوري سواء عندي، لا فضلَ لأَحدٍ على الآخر، وقد جاء الناسُ جميعاً واجتمعوا هنا للدِّينِ فقط.

وأحالَ أمرَهُما على قاضي العسكرِ وقالَ له: لا

يأخذنَّكَ فيهما جَنَفٌ[1] أو مُداهَنَةٌ، واحْكُمْ بينهما بما أراكَ الله، ولا تكنْ للخائنين خَصيماً.

كان الأمرُ جليّاً واضحاً، فكان للاهوري أن يقتصَّ من عنايت الله، ويكِزَهُ كما وَكَزَهُ، فإنَّ الجروحَ قصاصٌ، ولكنْ خافَ الناسُ الشرَّ وتخوَّفوا أن تكونَ للقصاص عاقبةٌ لا تُحمَدُ، وعسى أن تأخذَ عنايتُ الله الحدَّةُ فيثورَ عليه ويبطشَ به ثانيةً، ويحدثَ فتنةً الناسُ في غنىً عنها.

اجتهدَ الناسُ أن يتنازلَ لاهوري عن حقِّهِ، ويسامحَ غريمَهُ حِسْبةً لله تعالى، وتفادياً من الشر، وأرادَ القاضي أن يقنعَهُ، واجتهد الناسُ أن يُفْهموهُ، فقالوا له: إذا عفَوْتَ عن صاحبِك، وتنازلْتَ عن

---

(١) ميل عن العدل والحق.

حقَّكَ كان لك عند الله أجرٌ عظيم، ﴿**فمنْ عفا وأصلَحَ فأجرُهُ على الله، ولَمَنْ صَبَرَ وغَفَرَ إنَّ ذلك من عزمِ الأمور**﴾[1].

أما لَوْ أخذْتَ حقَّكَ كُنْتَ وصاحبَكَ سواءً ولم تستحقَّ الأجرَ والشكرَ.

قال لاهوري في بساطةٍ: ولو أخذْتُ بحقيِّ واقتصَصْتُ من صاحبي أكان عليَّ وِزْرٌ؟ قالوا لا! بل والله يقول: ﴿**ولَمَنِ انْتَصَرَ بعدَ ظُلْمِهِ فأولئك ما عليهم من سبيلٍ**﴾[2] قال لاهوري: إذن آخذ حقي وأقتصُّ منْ صاحبي.

هنالك يئس الناسُ وقطَعوا الرجاءَ وأوْقَفَ القاضي عنايت الله أمام لاهوري وقال للاهوري:

---

(١) سورة الشورى: الآية ٤٢.

(٢) سورة الشورى: الآية ٤٢.

دونَكَ الرجلُ فاضرِبْهُ كما ضربَكَ واقتصَّ منه.

قال لاهوري: أمِنْ حقِّي أنْ أضرِبَهُ كما ضربَني وأقتصَّ منه؟

قال القاضي: نعم.

واضطربَ الناسُ وأيقنوا أنَّ لاهوري ضاربُهُ ومقتصٌّ منه.

قال لاهوري: اشهدوا أيها الناسُ أنَّ القاضي قد أعطاني حقّي، ومكَّنني من غريمي وقد قضى ما عليه، وها أنا ذا متمكنٌ منْ خصْمي لا يمنعُني من القِصاصِ أحدٌ، ولا يحولُ بيني وبينَهُ شيءٌ، ولا أخافُ أحداً.

ولكن اشهدوا أيها الإخوانُ أني عفوتُ عن أخي، وتركْتُ حقي حِسْبةً لله تعالى وابتغاءَ رضوانِهِ.

تقدَّمَ لاهوري وعانقَ عنايت الله خان وضمَّهُ

إلى صدرِهِ وصافحَهُ، وهتفَ الناسُ مرحى مرحى، حياكَ اللهُ يا لاهـــوري وبياكَ، فقـد عمِلْتَ عمـلَ الرجالِ، وصنعْتَ صُنْعَ الأبطالِ.

وهكذا عمل «لاهوري» بقوله تعالى: ﴿**والذين إذا أصابهم البغيُ هم ينتصرون وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها، فمن عفا وأصلَحَ فأجرُهُ على الله إنه لا يحبُّ الظالمينَ**﴾[1].

---

(١) سورة الشورى: الآية ٤٠.

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

في اليوم الثاني من شهر مايو سنة ١٨٦٤م (١٢٨٠هـ) جلَسَ (ايدورس) القاضي الإنجليزي على كرسيٍّ في محكمةِ «أنباله»[١] وجلسَ بجانبهِ أربعةٌ من المساعدينَ المستشارينَ مِنْ وجَهاءِ البلدِ ليَرْوا رأيهمْ في القضيةِ، ووقفَ أمامَ هؤلاءِ أحدَ عشرَ رجلاً تنطِقُ وجوهُهُم وملامحُهم بشرفِهم وبراءتهم، ولكنهم اعتبروا من كبارِ الجُناةِ والمجرمين، فإنه يقالُ إنهم دبَّروا مؤامرةً ضدَّ الحكومةِ الإنجليزيةِ في الهندِ، وكانوا يساعدون أنصارَ السيد الإمامِ

(١) مدينة كبيرة في شرقي بنجاب وكانت ثكنة انجليزية ومركزاً إدارياً كبيراً في العهد الانجليزي.

أحمد بن عرفان الشهيد والمجاهد الجليل الشيخ إسماعيل الشهيد على حدود أفغانستانَ بالمال والرجال يرسِلونها سراً من داخل البلاد بحكمةٍ عجيبةٍ، وقد وضعوا لمراسَلاتِهم لغةً رمزيةً، وكانوا يجمعونَ إعاناتٍ منْ رعايا الإنجليز أنفسِهم ويرسلونَها إلى مركزِ الثوارِ، عثَرَتْ على ذلك الحكومةُ بوشايةِ جنديٍّ مسلمٍ في جنود الإنجليز، وألقتِ القبضَ عليهم في «بتنه» و «تهانيسر» و «لاهور»[1] وحاكمتهم، وهذا يومٌ يصدرُ فيه الحكمُ عليهم.

غصَّتِ المحكمةُ بالزائرين فقد كانت القضيةُ حديثَ المجالسِ، وحان صدورُ الحكمِ فشَخَصَتِ الأبصارُ، وأصْغَتِ الآذانُ، واضطربَتِ القلوبُ،

---

(١) مدن في بلاد الهند.

وخفتَتِ الأصواتُ، وإذا بالقاضي يتكلمُ في صوتِ الغضبانِ ويخاطبُ شاباً جميلاً قوياً يظهر أنه ربيبُ نعمةٍ وسليلُ شرفٍ:

«إنك يا جعفرُ رجلٌ عاقلٌ متعلمٌ، ولك معرفةٌ حسنةٌ بقانونِ الدولةِ، وأنت عمدَةُ بلدِكَ ومنْ سُراتِه، ولكنـك بذلت عقلَكَ وعلمَكَ في المؤامرةِ والثورةِ على الحكـومـةِ، وكنْتَ واسطةً في انتقالِ المالِ والرجالِ من الهندِ إلى مركزِ الثوارِ، ولم تَزِدْ إلا أن جحَـدْتَ وعـانَـدْتَ، ولم يثبُتْ أنك كنت مخلصاً وناصحاً للدولةِ، وها أنا ذا أحكم عليك بالإعدامِ ومصادرةِ جميعِ ما تملكُهُ من مالٍ وعَقارٍ، ولا يُسلَّمُ جسدُكَ بعد الشنِق إلى ورثتِك، بل يُدفَنُ في مقبرةِ الأشقياءِ بكلِّ مهانةٍ، وسأكونُ سعيداً مسروراً حين أراكَ معلَّقاً مشنوقاً».

استمع الشاب في سكينةٍ ووَقارٍ، ولم يتغيَّرْ ولم يضطربْ، ولما انتهى القاضي من كلامِهِ، قال محمد جعفر: «إنَّ النفوسَ والأرواحَ بيد الله تعالى، يحيى ويميتُ وإنك أيها القاضي لا تملك حياةً ولا مماتاً، ولا تدري من السابقُ منّا إلى مَنْهلِ الموتِ.

فوالله ما أدري وإني لأَوْجَلُ
على أيِّنا تَغدو المنيةُ أولُ

ثارَ الرجلُ غضباً وجُنَّ جُنونُهُ، ولكنَّهُ قد أطلقَ آخر سهْمٍ من سهامِهِ لا يملكُ غيرَهُ، استبشرَ محمد جعفر حينَ صدرَ عليه الحكم فتهلَّلَ وجهُهُ فرحاً، كأنما تمثلَتْ له الجنةُ وتمثلَتْ له الحورُ والقصورُ، وتمثل ببيت الشاعرِ:

هذا الذي كانتِ الأيامُ تنتظرُ
فَلْيُوفِ للهِ أقوامٌ بما نذرُوا

قضى الناسُ العَجَبَ مما رَأَوْا، ودنا إلى محمد جعفر ضابطٌ انجليزيٌّ يقالُ له «بارسن» وقال له: لمْ أرَ كاليومِ، قدْ حُكِمَ عليكَ بالإعدامِ وأنت مسرورٌ مستبشرٌ، قال محمد جعفر:

«ومالي لا أفرحُ ولا استبشرُ وقد رزقني الله الشهادةَ في سبيلِهِ وأنتَ يا مسكين لا تدري حلاوَتَها».

وحكَمَ القاضي على رجلين آخَرَيْنِ بالإعدامِ، أحدُهُما شيخٌ تلوحُ عليه سيما الصالحين وآيةُ العابدين، قد تلقَّى النبأ في سرورٍ وشُكْرٍ، وهو مولانا يحيى علي الصادق بوري أمير هذه الجماعة، والآخر شابٌّ يظهر أنه من الأغنياء والتجار الكبار، وأنَّ أصلَهُ من بنجاب، وهو الحاج محمد شفيع، وحُكِمَ على الثمانية الآخرين بالنَّفْيِ المؤبَّدِ.

سمــعَ النـاسُ المجتمعـونَ الحُكْمَ في حُزْنٍ وأَسَفٍ شديدٍ، وفـاضَتِ العيونُ، وسالَتِ الدموعُ، واجتمَعَ الناسُ منْ رجالٍ ونساءٍ على جانبي الشارعِ إلى السجنِ ينظرونَ إلى هؤلاء المظلومين ويَرْثون لهم.

ووصلوا إلى السجنِ ونُــزعَتْ ثيابُهُم وأُلْبِسُــوا ثيابَ المجرمينَ، وسُجِنَ كلُّ واحد من الثلاثةِ في حجرةٍ ضيقةٍ مظلمةٍ لا يدخلُ فيها الهواء، ولا ينفذُ فيها النورُ، وباتوا فيها في حَرٍّ شديدٍ، بِشَرِّ ليلةٍ باتَ بها قومٌ، وجاءت بُكْرَةً برقيةٌ تسمَحُ لهم بالمبيت في الميدانِ.

وبدأ زبانية السجنِ يصنَعون لهؤلاءِ حَبْلًا وعوداً للشنقِ على مرأىً منهم ومسمعٍ، وهؤلاء يرون كلَّ ذلك مطمئنين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

أما مولانا يحيى علي فهو من أشد الناس فرحاً كأنه من شوقِ الجنةِ في الجنةِ، ومن انتظارِ النعيمِ في النعيمِ ، ينشدُ الأبياتَ في حنينٍ ووَجْدٍ، ويتمثلُ بما قال سيدنا خبيبٌ رضي الله عنه عند شنْقِهِ.

ولستُ أُبــالي حينَ أُقتــلُ مسلمــاً
على أيِّ جنْبٍ كان في الله مَصْرَعي
وذلــك في ذاتِ الإلــه وإنْ يشَــأْ
يبــارِكْ على أوْصــالِ شِلْوٍ ممزَّعِ [1]

وكـذلـك رفقتـه، وجـوهٌ ضاحكـةٌ مستبشـرةٌ، ونفـوسٌ هادئـةٌ مطمئنـةٌ، وقلوبٌ راضيةٌ مسـرورةٌ، خشوعٌ في الصلاةِ وعبادةٌ في نشاطٍ، وذِكْرٌ وتسبيحٌ، وتلاوةُ آياتٍ، وحنينٌ ووَجْدٌ وإنشادُ أبياتٍ.

---

(١) الشلو: العضو من أعضاء اللحم، والممزع: المقطع.

ماتَ القاضي الإنجليزي ـ الذي حكم على هؤلاء الثلاثة بالإعدامِ ـ فجأةً على إثْرِ الحكْمِ، وجُنَّ الضابطُ الإنجليزيُّ «بارسن» الذي ألقى القبضَ على محمد جعفر، وضربَهُ يوماً من الساعة الثامنة صباحاً إلى الساعةِ الثامنةِ مساءً، وماتَ في جنونِهِ شَرَّ ميتَةٍ، فكان كما أنذَرَ محمد جعفر، و «رُبَّ أغْبَرَ أشْعَثَ لَوْ أقسمَ على اللهِ لأبرَّهُ»(١).

وكان يدخُلُ إلى السجْنِ كثيرٌ من الإنجليزِ والإفرنجيَّاتِ يتفرَّجونَ على هؤلاءِ السجناءِ يشمتون بمصيرِ الأعداءِ، وكانوا يقضُون العَجَبَ من سرورِهم ونشاطِهم، ويسألونَهم لماذا لا تحزنونَ يا هؤلاءِ وأنتم على عتبةِ الموتِ وعلى موعدٍ من الشنْقِ؟ فيجيبونَهم: هذا لأجْلِ الشهادةِ التي ليسَ

(١) حديث صحيح.

فوقها نعمةٌ وسعادةٌ.

ويرجعــون إلى الحكّامِ الإنجليزِ ويحدِّثونَهم بمـا رأَوْا وبمـا سمعوا، فيزدادونَ غيظاً على غيظٍ، ولكن ماذا يصنعون؟ إنهم إذا أطلقوهُم فقد أطلقوا أعداءً قد ثاروا على الدولةِ، وأنهم سيرجِعونَ إلى ذلـك، وإذا شَنَقُـوهم وقتلوهم فقـد بلَّغوهم أَمَلَهُمْ واجتهدوا في سرورِهم.

قد عزَّ على الإنـجليزِ كلُّ ذلــك ولـم تَطِبْ أنفسُهم به.

فكَّروا في القضيةِ، وفكَّروا، وفكَّروا، ووجدوا طريقـاً وسطاً بين القتلِ والإطلاقِ، والإنجليز أمةٌ قانونيةٌ ذكيةٌ.

في يومٍ من الأيامِ جاءَ حاكــمُ الـمــدينــةِ الإنجليزيُّ إلى السجنِ وتلا على الثلاثةِ المحكومِ

عليهم بالإعدامِ ، حُكْمَ محكمةِ الاستئنافِ .

«إنكم أيُّها الثوارُ تحبُّونَ الشَّنْقَ وتعدُّونه شهادةً في سبيل الله، ولا نريد أن نبلِّغَكم أمَلكم، ونُدخِلَ عليكُمُ السرورَ، ولذلك ننسخُ حُكْمَ الإعدامِ ونحكم عليكم بالنفيِ المؤبَّدِ إلى جزائرِ سَيْلان» .

ووصلوا في الثامن من ديسمبر سنة ١٨٦٥م إلى بورت بلير من جزائر اندمان ومات الشيخ يحيى علي هناك بعد عامينِ قضاهما في عبادة ودين، ودعوة الخَلْقِ إلى اللهِ، وكانَ ذلك في سَنَة ١٢٨٤هـ (٢٠/ من فبراير سنة ١٨٦٨م) أمّا الشيخ محمد جعفر فقد صدر الحكم بالعفوِ عنه، وإطلاقِهِ في الثاني والعشرين من يناير سنة ١٨٨٣م بعدما لبث في المنفى ثمانية عشر عاماً .

وصدق الله العظيم:

﴿مِنَ المؤمنينَ رجالٌ صدقُوا ما عاهدوا اللهَ عليهِ فمنهم من قضى نحبَهُ ومنهم من ينتظرُ وما بدَّلُوا تبديلاً﴾[1].

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٣، والحكاية مأخوذة باختصار من كتاب المؤلف «إذا هبت ريح الإيمان» طبع، مؤسسة الرسالة ودار القلم ودار عرفات.



الفهرس